٥

سلسلة "شؤون رعائيّة"

الموت رؤية أرثوذكسيّة
أنخاف الموت بعد؟

الشمّاس إلياس بركات

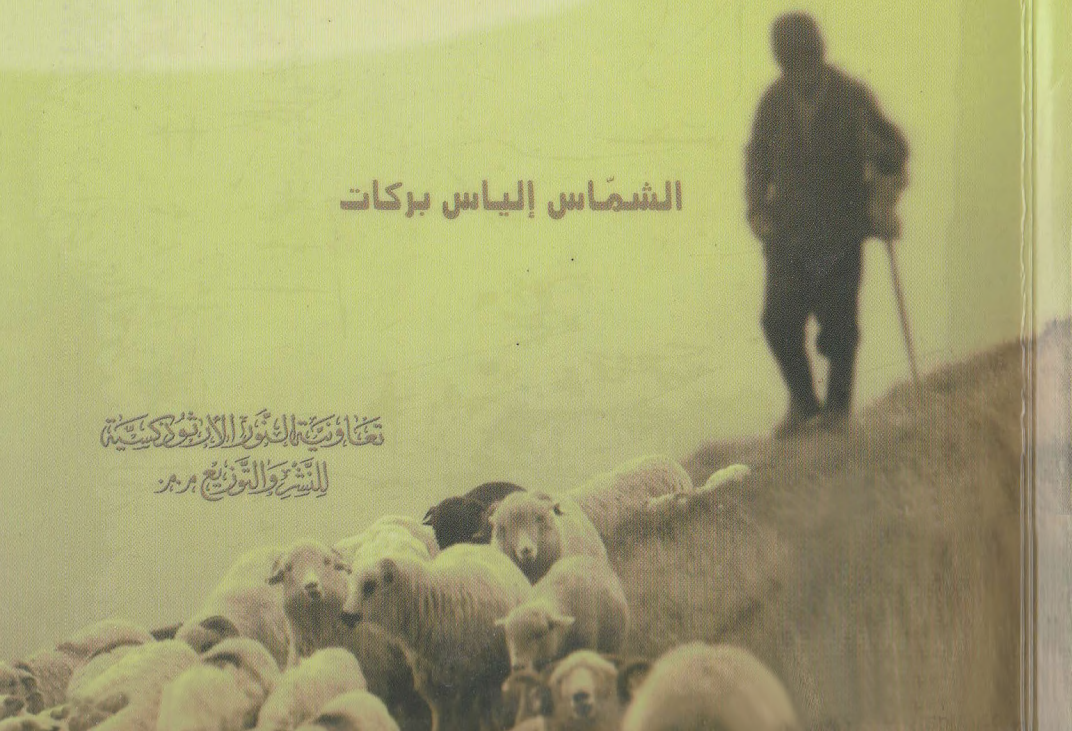

تعاونية الكلمة الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع ش.م.م

سلسلة «شؤون رعائيّة» ٥

الموت رؤية أرثوذكسيّة
أنخاف الموت بعد؟

الشمّاس إلياس بركات

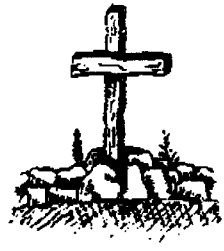

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م.م.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
© جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١٣.

أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر حزيران ٢٠١٣

الإهداء

إلى زوجتي وابني،
إلى أهلي وأهل زوجتي،
إلى كلِّ الذين يحتملون
فقد أحد أفراد العائلة بإيمان،
قائلين:

الربّ أعطى والربّ أخذ؛
فليكن اسم الربّ مباركًا.
صانع عظائم لا تستقصى
وعجائب لا تُحصى
(أيّوب ١: ٢١؛ ٥: ٩؛ ٩: ١٠)

الفهرس

تمهيد	٩
مقدّمة للمطران جورج خضر	١٣
تعليق على موت لعازر	١٧
حرّيّة الألم وأصله	٢١
آلام الجسد والنفس والروح	٢٩
الألم من جرّاء موت قريب	٤١
التفجّع والحزن	٦٩
الإيمان	٨١
الصلاة والصبر	٨٩
الفرح في الألم	١٠٣
صلوات الدفن والعلاقة مع الراقدين	١١١
طقوس الموت والدفن في العهد القديم	١٢٧
الموت قبل المسيح وبعده. أنخاف الموتَ بعد؟	١٣٥
نزاع الموت	١٥١
إرشادات	١٦١
الصلوات في الكنيسة	١٧٣
الصلوات في البيت	١٧٣
ممارسات خاطئة	١٧٩

تمهيد

في فترة زمنيّة قصيرة غابت فيه عنّا وجوه نور، قامات ملائكيّة، مقوّمون بالمحبّة، راعيا أبرشيّتي عكّار وطرابلس ورئيسة دير سيّدة كفتون للراهبات. في هذا الوقت، والمؤمنون إلى التعزية تائقون، صدر كتاب المتروبوليت جورج (خضر): «وجوه غابت، رؤى في الموت»*. وإذ كنت على وشك إنهاء هذا الكتاب، ارتأيتُ أن أمهد له ببعضٍ من سطوره، والروح واحد... هاكم بعض ما كتبه سيادته:

«لا ندرك كيف تنزل عليك مِن الذين ارتحلوا مودّات، لكن هذا يقع في أعماق النفس. وتتقبل هذا المطِلّ عليك من فوق وترنو إليه في الضيق لتتعزّى عن الآخرين أو عن نفسك، ويساقط هذا عليك ثمار السماء، وإذا نزلت عليك مائدة من السماء تكون لك وله عيدًا ويكون الحزن قد انقطع.

وإذا أدركت الشيخوخة ورأيت أنّهم يذهبون الواحد تلو الآخر، لا ترى نفسك، بالضرورة، وحيدًا لأنّ الفراق ليس مقاطعة... نحن نعيش على هذه الأرض، وفي الحقيقة إنّنا نحيا فوق على رجاء امّحاء خطايانا وكسب الرأفة الإلهيّة...

أنا الآن أبذل نفسي عن أصدقائي بالعطاء، وهم يبذلون لي ما يستمدّونه من الحضرة. ولذلك بات ما نتبادله أنقى بكثير ممّا كنّا نتبادله هنا، حتّى يرفعنا ربّنا الواحد إلى الكنيسة الظافرة في يوم حكمته.

هناك أيضًا خبرة القدّيسين الذين أناجيهم ويناجونني وأكتب وأتكلّم عند إملائهم، وإذا كانوا لا يستكتبونني فأنا أتفه المخلوقات.

أنا أعرف أنّهم أنقذوني من محن كثيرة، أدعوتهم صراحة أم لم أدعُ. هذه أبعاد في الوجود لا يعرفها إلاّ الذائقون. في هذا الوجود لنا ميتات كثيرة تشبه الموت الأخير. الرجاء هو إلى ما بعد رجوع التراب إلى التراب وتحوّل كيانهم كلّه إلى نور ولا يقرأ الله فيهم إلاّ النور.

لم تهتمّ الكنيسة الشرقيّة بالحديث عمّا تصير النفوس إليه من بعد موت. قالت إنّ النفوس في الرحمة. غير أنّ هذا التجلّي لا يتمّ فقط في اليوم الآخر ولكنّه يتحقّق على الرجاء في كلّ لحظة نعيشها في الإيمان وذلك في ارتباطنا الشخصيّ بالمسيح يسوع.

يجب التأكيد أنّ أهمّ شيء في العالم وأعمّه، أعني الموت، يؤلّف مسألة خارجة عن حدود المعقول إذا لم نعتبر الموت أمرًا بيولوجيًّا عاديًّا. إنّه ذو معنى مرتبط بمسار الإنسان التاريخيّ وضعفه. إنّه حدث ينتهي إلى القيامة. في العهد الجديد انتقلنا من كَثرة السنين إلى نوعيّة الحياة، فالقيامة ألقت وشاحها على العمر وابتلعت امتداده في ضيائها، فأضحى سِحرها أكثر جاذبيّة من أفقيّة السنين وبتنا نذوق القياميّات هنا نكهة الحياة ومعناها.

المسيح لا يتبنّى الموت. هذا يبقى عدوًّا إلى الأبد. غير أنّ الذي دخل إليه ووطئه وفجّره من داخل يصير شريكنا عند موتنا، يموت معنا فنحيا به. لذلك لا يسوغ أن نقول إنّ إنسانًا مات بمشيئة الربّ. لا مصالحة مع الموت. المصالحة هي فقط مع الله الذي يتلقّانا بعده بالرحمة. ما كُتِب الموت علينا حسب التراث المسيحيّ. إنّه جاءنا خلسة بسبب من الخطيئة. «أجرة الخطيئة هي موت» على ما قال بولس وذلك تأكيدًا لـما جاء في سفر الحكمة: «إنّ الله لم يصنع الموت ولا يُسرّ بهلاك الأحياء، فإنّه خلق كلّ شيء لكي يكون» (١٣: ١ و١٤). الله يعرف كلّ

ميتة ولا يُحدثها.

لا يصحّ عند عامّة المسيحيّين أن تقول إنّ الله صالحنا مع الموت إذ يقول بولس: «آخر عدوّ يُبطل هو الموت» (١كورنثوس ١٥: ٢٦). لقد صالحنا المسيح مع الله بموته هو لا بموتنا. وتتمّ المصالحة الأخيرة عند انبعاثنا من بين الأموات. ذلك بأنّ موت المسيح حياة لنا. وهذه هي المفارقة إنّه كان لا بدّ من موت آدم الثاني لتفعل حياته فينا.

وفي مدنيتنا الحاضرة كلّ شيء يجب أن ينظّم حتّى ننسى الموت. من هنا إنّنا نلجأ إلى الاستمتاع وإلى التملّك. من هنا إنّنا لا نستطيع أن نعرف أنّ الحياة هي في المشاركة، وفي المحبّة التي تجعلنا وحدها ندوم».

مقدّمة

للمطران جورج خضر

هذا الكتاب أرثوذكسيّ في منهاجه، لجمعه بين استشهاداته الكتابيّة من العهدين وارتكازه على الآباء. ومن المحزن أنّ لاهوتيّين كبارًا عندنا لا يعودون إلى مصادر الوحي، وينحصرون في تراث آبائنا.

أمّا البحث فليس سهلاً انطلاقًا، لأنّ الأصول اللاهوتيّة عندنا فيها القليل عن وضع النفس قبل القيامة العامّة. هل من علاقة بينها وبين الجسد قبل أن ينضمّ أحدهما إلى الآخر في اليوم الأخير؟ هل من اتّصال مع الربّ توًّا بعد الفراق؟ أي هل من انعطاف إلهيّ على النفس أو من دينونة خاصّة بمعنى التخاطب الحقيقيّ بين الربّ والروح؟ هل من تطهّر للنفس كما توحي بذلك الصلوات من أجل الأموات بلا نار ولا مكان.

كان لا بدّ للكاتب من أن يقابل هذه التساؤلات، إذا أراد أن يقول شيئًا عن مصير النفس قبل الآخرة، حسب التسمية الشائعة، وهي تسمية لا نجدها في العهد الجديد.

لماذا هذا الكلام القليل عن نهاية الحياة ونحن لا نعرف شيئا في الحقيقة إلاّ رحمة الله. هناك سكوت كبير ربّما لارتكاز إيماننا على قيامة المخلّص وتاليًا على قيامتنا، وما بينهما نأخذه في الصلاة والصدقة من أجل الراقدين. ترفع الأدعية من أجل الإخوة الذين ذهبوا إلى الله، التماسًا لتقوية الرحمة الإلهيّة لهم، وتستقيم في روحانيّتنا هذه المشاركة الطيّبة ونتعزّى بأدعية القدّيسين من أجل هذه الأرواح من دون تغذية مشاعر بشريّة. كلّ العلاقة بيننا وبين الذين استراحوا في الربّ،

تتجاوز العواطف بحيث نسكن إلى الربّ الذي يتولّى وضع تلك النفوس، ويشرح صدرنا في علمنا أنّها مستقرّة تحيا برأفات لا نهاية لها.

هناك طبعًا معتقدات شعبيّة يذكرها الكاتب، وهي ليس لها أساس في معتقدنا. الناس في انشدادهم العاطفيّ، ينسجون نسجًا خرافيًّا يدغدغ عواطفهم، ولكن ليس له أساس بالوحي. يريدون لصوقًا حارًّا بيننا وبين الأرواح المتقدّسة، ولكنّ الله لم يقل عن هذا شيئًا في الوحي. الشمّاس إلياس بركات يريد المؤمنين أن يثبتوا في كلام الكنيسة أو في صمتها لأنّ في هذا حكمة الله.

قدس المؤلّف يريد المؤمنين أن يقيموا في العقيدة السليمة، فلا يتجاوزون الإيمان «المسلّم مرّة من القدّيسين»، إذ هو وحده يخلّص، ولذلك اتّخذ الكتاب الطابع العِقديّ الذي يحفظ المؤمنين من الضلال، والطابع الرعائيّ الذي يقيهم الانفعالات المؤذية. نفوس الراقدين لا تتّجه إلينا ونتّجه إليها ضمن استقامة الرأي، ولهذا ليس من استدعاء للأرواح لنتلاعب بها. هذا وهم وعلى افتراض حضورها، خشينا أن نقتحم عالمًا مغلقًا دوننا قبل اليوم الأخير. العلاقة بيننا وبين الراقدين تنحصر في الصلاة.

في النهاية يبدو هدف الكتاب هدفًا رعائيًّا همّه خلاص النفوس. لذلك يأتي حديثه كثيرًا عن الحزن وما يرافق الموت عند أصدقاء الميت. الغاية تهدئة النفوس وسلامها من كلّ الضغوط التي تثقل النفس. وفي النهاية نوقن أنّ قيامة المخلّص هي التي تنجّيك من أثقال هذا العالم. يأخذ القارئ الكثير ممّا يحتاج إليه لبنيان نفسه، ويرث علمًا ما كان يلمّ به.

نحن في حاجة إلى العلم بالمسيح، وما يعطينا فداؤه لنا، وإلى أن

تعرض أوجاعنا عليه. هذا ما تجده في هذا الكتاب النفيس، ولا سيّما إذا استغنيت بأقوال الكتاب الإلهيّ فيه والآباء. تطلّ من بعد موت عزيز على الحياة الأبديّة الحقّ التي ابتدأت عندك بالمعموديّة. هذا الكتاب مسيرة من مسيرات الخلاص.

«جمع من اليهود انضمّ للنساء المتحلّقات حول مرثا ومريم
يعزّونهما عن أخيهما»

(يو ١١: ١٩)

تعليق على موت لعازر

وقالت مرثا ليسوع: «يا سيّد، لو كنت ههنا لما مات أخي فأنا واثقة تمامًا بأنّ الله يعطيك كلّ ما تطلب منه». فأجاب يسوع: «سيقوم أخوك». قالت مرثا: «أعرف أنّه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير». فردّ يسوع: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي وإن مات فسيحيا. ومن كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟» (يو ١١: ٢١-٢٦).

فلمّا رآى اليهود، الذين كانوا مع مريم في البيت يعزّونها، تهبّ واقفةً وتسرع بالخروج، لحقوا بها، لأنّهم ظنّوا أنّها ذاهبة لتبكي عند القبر (يو ١١: ٣١). فلما رآها يسوع تبكي، ويبكي معها اليهود الذين رافقوها، فاض قلبه بالأسى الشديد، وسأل «أين دفنتموه؟» فأجابوا: «تعال يا سيّد، وانظر!» عندئذ بكى يسوع. فقال اليهود بعضهم لبعض: «انظروا كم كان يحبّه» (يو ١١: ٣٣-٣٦).

لماذا يحفر الموت، هذا الزائر غير المدعو، أثلامًا في قلوبنا ونفوسنا وفي كلّ كياننا؟ لماذا يلوّع جسدنا وعقلنا؟ فلنبذر في هذه الأثلام بذور الرجاء.

في الخبرة البشريّة لم يكن الموت سهلاً قطّ، إن حدث في الصغر أم في الكهولة. إن كان فجائيًّا أم بعد طول مرض. ودائمًا يترك في إثره الحزن والدموع والوحدة والتحرّق. لكنّ الربّ، الذي قهر الموت بموته، أثبت أنّ بعد العذاب النفسيّ هناك القبر الفارغ، وجميعنا، إن عشنا كما عاش المتروبوليت أنطوني، سنكون مع المسيح في ملكوته

السماويّ[1].

سقط آدم، فطالت نتيجة فعلته هذه الكون بأسره. والله بفيض رحمته ومحبّته أعاد شمل العالم، وبذل ابنه الوحيد على الصليب، وبقيامة يسوع رجعت الوحدة إلى سابق عهدها، بما أنّ هبة الله هي الحياة الأبديّة في المسيح يسوع ربّنا (رو ٦: ٢٣).

[1] الشواهد الإنجيليّة من ترجمة فان دايك الإلكترونيّة – جمعيّة الكتاب المقدّس. إصدار ٢٠٠٧.
Metropolitan Philip: Message of condolence on the passing of Metropolitan Anthony of San Francisco December 28, 2004.

«أُعطيتم حياة للتوبة، فلا تبدّدوها على أمور أخرى»

القدّيس إسحق السوريّ

حرّية الألم وأصله

الألم بخفاياه وأسراره ومحنه يرافق كلّ قادم إلى هذه الحياة. هذه حقيقة محزنة حتميّة، مثل أمامها البشر على مرّ العصور بخوف ورهبة. كلّما استقصينا عن الألم، كلّما عجزنا عن فهم وجوده في الحياة أو تفسيره، وألَمنا لن يخفّ. «من يزداد علمًا يزداد حزنًا» (جا ١: ١٨).

مهما حاولنا، لا يمكننا أن ندرك أو نفسّر، إن كان الألم شرًّا في حدّ ذاته أم وليده، وطبيعة العلاقة بينهما. يخبرنا سفر الخروج أنّ الصلة بين الألم والشرّ هي نتيجة المعصية، عندها دخل جوهر الشرّ الطبيعة البشريّة، فقط بعد السقوط.

الشرّ والخطيئة لم يوجدا في العالم قبل سقوط آدم وحوّاء، «ورأى الله ما خلقه فاستحسنه جدًّا» (تك ١: ٣١). إبليس هو مبدع الخطيئة وأبو الكذبة. إلاّ أنّ الإنسان مذنب بخطيئته الشخصيّة وبالشرّ الذي يقترفه بإرادته. فالخطيئة فعل إرادة واعية عند الإنسان الأوّل، وكذلك عند كلّ من يقاوم إرادة الله. يصف الرسول بولس الخطيئة بأنّها عصيان، وتمرّد، وانتهاك وتعدّ (رو ٤: ١٥ و٥: ١٩). لُقّح الإنسان بالشرّ فصار جسدًا وخسر حياته الروحيّة الإلهيّة وأهليّة صورته واستُعبد للموت. ويستمرّ الصراع داخل الإنسان بين قانون الروح وقانون الإثم. تُخاض هذه الحرب لأنّ المعصية بلبلت العلاقة بين الخالق والمخلوق، فذاق الإنسان التغرّب والموت.

صارت معصية آدم كونيّة لأنّه تصرّف كمندوب عن الجنس البشريّ. ولذلك يقول الرسول بولس «ولهذا، فكما دخلت الخطيئة إلى

العالم على يد إنسان واحد، وبدخول الخطيئة دخل الموت، هكذا جاز الموت على جميع البشر، لأنّهم جميعًا أخطأوا» (رو ٥: ١٢). أمّا القدّيس أثناسيوس الكبير فقد كتب: «أسكنهما في فردوسه، وأعطاهما قانونًا: إن حفظا النعمة وتصرّفا حسنًا، عاشا في الفردوس بدون حزن أو ألم أو همّ بالإضافة إلى الخلود فيه؛ أمّا إن تعدّيا وأدارا ظهريهما وأثما، فليعلما بأنّهما سيجلبان على نفسيهما الفساد بالموت: ولن يسكنا الفردوس في ما بعد، بل يطردا منه ليموتا وليقيما في الموت والفساد»[٢]. والقدّيس غريغوريوس النيصصيّ كتب: «أمّا الخطيئة، بطريقة أو بأخرى، فمولّدة من الداخل، من الإرادة، في لحظة ارتداد النفس عن الوجه الصبيح»[٣].

يظهر الشرّ كشيء طبيعيّ وأخلاقيّ. طبيعيّ كالألم الجسديّ أو الروحيّ، كالفناء والموت؛ وأخلاقيّ كالخطيئة. الشرّ الأخلاقيّ يسبّب الألم. علاقة الشرّ بالألم كعلاقة السبب والنتيجة، الخطيئة وليدة إرادة الإنسان الحرّة ويصفه يسوع بقوله لأختي لعازر «هذا المرض ليس للموت» (يو ١١: ٤).

في العظة على مقطع المخلّع، يعلّق الذهبيّ الفم قائلاً: «الخطيئة مخيفة، خراب النفس مخيف كذلك، وكثرة الأذيّة تفيض وتغزو الأجساد تاليًا. عندما تمرض النفس لا نشعر بالألم في أغلب الأحيان، أمّا وإن أصيب الجسد ولو إصابة خفيفة فلا نألو جهدًا لتحريره من سقمه، ولأنّنا حسّاسون لأسقامنا فغالبًا ما يعاقب الله الجسد لآثام النفس، حتّى بجلد الجزء الأضعف يشفى أيضًا الجزء الأفضل»[٤].

---

[2] St.Athanasius. Second Book: On the Incarnation of the Word of God. The Early Church Fathers.

[3] St. Gregory of Nyssa Great. Catechism, Prologue, chapter 5. The Early Church Fathers.

[4] St. Chrysostom, Homilies on the Gospel of St. John, Homily XXXVIII. The Early Church Fathers.

بالإضافة إلى ذلك يلاحظ الذهبيّ الفم إثمين عظيمين، وهو أنّ «الخطيئة ولّدت لنا الألم والموت. فلا نخافنّ الموت بل الخطيئة؛ فبسببها نعاني البلايا»[5]. فلا نخف شيئًا كما نخاف الخطيئة والتعدّي[6].

وفي العظات إلى الأنطاكيّين كتب الذهبيّ الفم: «أتريدونني أن أذكر لكم سببًا آخر لم نخاف الموت؟ فنحن لا نتشدّد في سلوكنا، ولا نلزم ضميرًا نقيًا؛ وإلّا لما هابنا شيء، ولا الموت عينه، لا مجاعة ولا خسارة الثروة، أو أيّ شيء من هذا القبيل. فكفّوا عن مرثاة الموت وارثوا لآثامكم لكي تتحرّروا منها! فارثوا بالفعل لوجودها وليس لخسارة الثروة، ولا للموت، ولا لأيّ شيء آخر، بل لاستخدامها لنزع آثامنا. أمّا ما يختصّ بالحزن، فكلّ ما يحصل لنا لا فائدة منه سوى لإصلاح آثامنا؛ فالواضح أنّها لم توجد إلا لحقها. فلا نخشى الموت من بعد بل الخطيئة، ونكتئب بسببها»[7].

ويوضح لنا الذهبيّ الفم ما يجب أن نخافه في الموت. فليس المهمّ كيف نموت إنّما في أيّة حالة نموت. في عظة أخرى للأنطاكيّين قال: «قد يقول أحدنا، أنا لا أخاف الموت، ولا من ممارسة الموت، بل من موت مخز، أن يُقطَع رأسي. وأنا أسأل، هل كان موت يوحنّا (المعمدان) مخزيًا؟ فقد قطع رأسه. أم هل كان استشهاد إستفانوس مخزيًا؟ فقد رجم: وجميع الشهداء ماتوا بازدراء: بما أنّ البعض حرقوا، وآخرون ماتوا

[5] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V. The Early Church Fathers.

[6] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily VII. The Early Church Fathers.

[7] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (12,14). The Early Church Fathers.

بالسيف، البعض طَرحوا في البحر، آخرون ألقوا عن جرف، والبعض جعلوا طعامًا للوحوش الضارية. أن تموت بحقارة، أيّها الإنسان، ليس أن تنتهي حياتك بموت عنيف بل أن تموت في الخطيئة! اسمع إذًا ما يقوله النبيّ: «موت الخاطئ إثم». فهو لا يقول بأنّ الموت العنيف إثم؛ لكن ما يقول؟ «موت الخاطئ إثم». وهو بحق كذلك؛ فبعد مغادرة هذه الحياة، سنواجه عقابًا لا يُحتمل؛ قصاص أبديّ، الدود الحاقد، نار لا تطفأ، الظلمة الخارجيّة، قيود لا فكاك منها، صريف الأسنان، الشدائد، الألم والعدالة الأبديّة»[٨].

الألم في العهد القديم هو شرّ كونيّ. الكل سيتعذّب، من لابس الأرجوان المتوّج الجالس على عرش بديع إلى المتجلبب بالخيش المعفَّر وجهه بالتراب والرماد (سي ٤٠: ١-١١). «الإنسان مولود المرأة، قصير العمر ومفعم بالشقاء» (أيّ ١٤: ١). وكلّ ألم وحزن وبليّة مصدرها الخطيئة. وإشعيه يقول: «إنّما خطاياكم أضحت تفصل بينكم وبين إلهكم، وآثامكم حجبت وجهه عنكم، فلم يسمع» (إش ٥٩: ٢).

في العهد القديم نلاحظ أنّ الشفاء من الألم هو من أعمال الله وسيخلص الإنسان منها على يد المسيّا. أمّا في العهد الجديد فنجد أنّ الألم مرتبط بطبيعة الشرّ: «فالشدّة والضيق على نفس كلّ إنسان يعمل الشرّ» (رو ٢: ٩). «لأنّ أجرة الخطيئة هي الموت» (رو ٦: ٢٣). من الواضح في سفر الرؤيا أنّ الألم والحزن والمعاناة في هذا العالم متأصّلة في السقوط الأخلاقيّ والمعصية (رؤ ١٨: ٢-٦).

إن أدرك الإنسان في العمق هذا الألم، فبإمكانه استعادة حرّيّته

[٨] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (7). The Early Church Fathers.

باختياره الصلاح، وفقط بنعمة الله ومساعدته.

بالحزن والموت نزيل الخطيئة وننتصر عليها، فهنالك حياة واحدة، إن أردنا الحياة. وهنالك موت واحد، الخطيئة، أي دمار النفس[٩].

[٩] St. Gregory Nazianzen Orations, Oration XII (42). The Early Church Fathers.

«فانتبهوا تمامًا إذًا كيف تسلكون بتدقيق، لا سلوك الجهلاء بل سلوك العقلاء؛ مفتدين الوقت».

(أف ٥: ١٥–١٦)

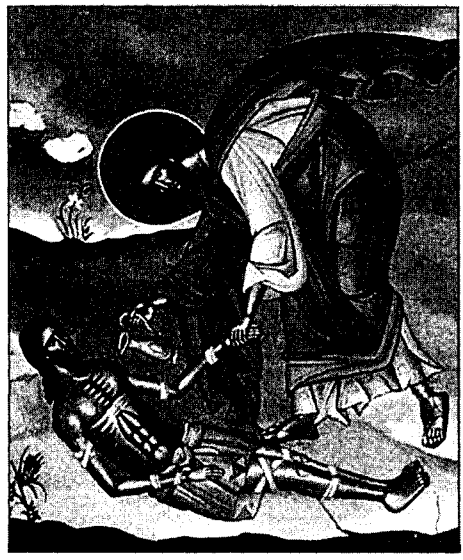

آلام الجسد والنفس والروح

يقول واضعو الكتاب المقدّس والآباء إنّ مصدر الألم إنّما من معصية الإنسان الأوّل، وهو مرتبط بطبيعة الشرّ الأخلاقيّ: الخطيئة. الألم في حدّ ذاته شرّ طبيعيّ، وتاليًا فالألم الجسديّ ناتج من الشرّ الأخلاقيّ. للجسد البشريّ قيمة عظيمة لأنّ الله عزّ وجلّ خلَقَه بمحبّة وحكمة، وقد تكرّم بخلق جسدنا بيده.

قيمة الجسد البشريّ عظّمها الرسول بولس لاهوتيًّا في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١كو ١٢: ١٤-٢٧). هذا الجسد لا يوفّر وحدة أعضائه فقط إنّما يعبّر عن الشخصيّة في أعظم نشاطاتها: في حالتها الطبيعيّة والخاطئة، وفي تكريسها لله والحياة المجيدة. قيمة هذا الجسد تأتي من حقيقة أنّ الربّ نفسه اتّخذ جسدًا (يو ١: ١٤). الجسد في حدّ ذاته يستحقّ الاحترام بما يُعبّر عنه، وبما أنّه «هيكل الروح القدس» (١كو ٦: ١٥). وهو «هيكل الله الحيّ» (٢كو ٦: ١٦). لذلك «مجّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم، التي هي لله» (١كو ٦: ٢٠). بما أنّ الإنسان جسد وروح، مادّة ونفس، فكلاهما مباركان لكونهما خليقة الله وكذلك لأنّنا نتناول جسده ودمه الكريمين في سرّ الإفخارستيّا.

مع أنّ قيمة الجسد البشريّ عظيمة، إلا أنّه يخضع لنتائج الشرّ الأخلاقيّ: الخطيئة. فهو خاضع للجوع والعطش والتعب. الخطيئة استعبدت الجسد الذي سكنته بعد السقوط (رو ٧: ٢٠) وصار جسدًا خاطئًا (رو ٦: ٦). عندما تستعبد الخطيئة الجسد وتسوده يصبح «جسدًا وضيعًا» (في ٣: ٢١) و«جسد موت» (رو ٧: ٢٤). لهذا ما عاد الجسد يعبّر

عن الإنسان كما خرج من بين يدي الخالق بل يظهره كإنسان مستعبد للجسد: للخطيئة. «فالجسد يشتهي بعكس الروح، والروح بعكس الجسد» (غل ٥: ١٧). تستعبد الخطيئة الجسد بالمعصية وتظهر ذاتها فيه بأمراض وآلام متنوّعة. يقول الرسول بولس: «أمّا أنا فجسدي بيع عبدًا للخطيئة» (رو ٧: ١٤)؛ لكنّه يتابع: «ليس بعد أنا من يفعل ذلك، بل الخطيئة التي تسكن فيّ» (رو ٧: ١٧).

آلت هذه الأمراض إلى فقدان بعض أساسيّات الحياة، كالنطق (مر ٧: ٣٧)، والسمع (متّى ١٢: ٢٢؛ مر ٧: ٣٢، ٣٧؛ لو ١: ٢٢)، الحركة (متّى ١١: ٥؛ ١٥: ٣٠؛ مر ٩: ٤٥؛ لو ١٤: ١٣؛ يو ٥: ٣)، النظر (متّى ٩: ٢٧؛ مر ٨: ٢٢؛ لو ٤: ١٨؛ يو ٥: ٣؛ ٩: ١). الأمراض ذاتها خلّقَت أيضًا أمراضًا مستعصية كالبرص (متّى ٨: ٢؛ مر ١: ٤٠؛ لو ١٧: ١٢) والشلل (متّى ٤: ٢٤؛ مر ٢: ٣؛ لو ٥: ١٨؛ أع ٨: ٧؛ ٩: ٣٣).

مع أنّ الربّ يطلب من شعبه التماس نصائح الأطباء، وهو مانح الشفاء، إلا أنّه يشدّد على تأثير الصلاة والامتناع عن الخطيئة. «أكرم الطبيب لأجل فوائده، ولأنّ الربّ خلقه. فمن العليّ معرفته ومن الملوك جوائزه. قدرته ترفع رأسه وأصحاب الشأن يقدّرونه. الربّ خلق الأدوية من الأرض، والعاقل يستخدمها. أما بعود تحوّل الماء عذبًا فأقيم الدليل على قدرة الربّ. الربّ عرّف بني البشر بهذه الأدوية حتّى بعجائبها يمجّدوه. فالعطّار يمزجها والطبيب يستعملها ليشفي الأوجاع من المرض. فأعمال الربّ لا تنتهي. وبها تعمّ العافية وجه الأرض. إذا مرضت يا ابني فلا تتهاون، بل صلّ إلى الربّ فهو يشفيك. عد عن ذنوبك واعمل بالحقّ، وطهّر قلبك من كلّ خطيئة. قرّب للربّ بخورًا وتقدمة الدقيق وكن سخيًّا على قدر ما أمكنك. وادع

الطبيب لأنّ الربّ خلقَه أيضًا، وخَلّه إلى جانبك ما احتجته. فيومًا ما يكون شفاؤك على يديه، ويكون ذلك أنّه دعا الربّ فاستجاب منعمًا عليه بالنجاح في تخفيف الأوجاع واسترجاع العافية. أمّا الخاطئون أمام خالقهم فسيمرضون، وإليهم يدعون الطبيب» (سي ٣٨: ١-١٥).

يكرّم أيّوب كقدّيس لا بسبب آلامه الكثيرة والمتنوّعة وتجاربه الأليمة فحسب، بل لهجرانه وعزلته. عذاب هذه الشخصيّة الكتابيّة العظيم كان بسبب ازدراء خلاّنه به وهو احتمل هذا كلّه بصبر نموذجيّ.

من لحظة ارتكاب الخطيئة الأولى لُعنت الأرض وأنبتت شوكًا، وإلى أجيال قادمة، سيقاسي الإنسان أبدًا آلامًا جسديّة متزايدة لعقوقه وتلويثه الطبيعة رغم التقدّم التكنولوجيّ، غير ناسين التقدّم في مجال العلوم الطبّيّة، بسبب تخلّيه عن الله وحياته اللاأخلاقيّة، بالطمع، بالإفراط في الترف، بنبذ الفضيلة، بالأنانيّة والسلوك غير الطبيعيّ. كلّ هذه الآلام مردّها إلى الخطيئة الأخلاقيّة.

صمد آباء الكنيسة العظام وأناس الكتاب المقدّس أمام الآلام الكثيرة بالصلاة. باسيليوس الكبير كتب إلى يوسابيس أسقف سموساطة: «قوّتي البدنيّة خانتني تمامًا، حتّى إنّي ما عدت قادرًا على تحمّل أبسط حركة بدون أوجاع. إلاّ أنّني مع ذلك أصلّي، لكي بصلواتك، أتمّم توقي، مع أنّ إخفاق جسدي هذا قد سبّب لي الكثير من الآلام»[10].

وماذا نقول عن عذاب الشهداء والقدّيسين العظيم، الذين عذّبهم جلاّدوهم بوحشيّة وحقد، والذين حرقوا أحياء؟ هؤلاء زيّنوا

[10] St. Basil the Great, Letter XXVII: To Eusebius, bishop of Samosata. The Early Church Fathers.

بألَم الاستشهاد ومعاناته. إلاّ أنّنا حيث يجب أن نقف طويلاً بخشية ورعدة، بالصلاة والامتنان العميق، أمام شهيد الله الأسمى، مخلّصنا يسوع المسيح. فهو مثال الشهداء؛ وهو العبد المتألّم الذي تنبّأ عنه إشعيه بأنّه ما عاد له «شكل ولا بهاء» (إش ٥٣: ٢) بسبب ألم الصلب وحزنه.

الألم الجسديّ بكلّ أشكاله، خلال الأجيال، يعذّب جسد المريض وروحه. يعذّب الروح لأنّ الألم الجسديّ يؤثّر أيضًا في المشاعر الروحيّة. كلّ ما يصيب الجسد يؤثّر في الروح. وكذلك الألم الروحيّ يؤثّر في الجسد بما أنّ الطبيعة البشريّة هي مادّيّة وروحيّة. «فرح القلب دواء شاف، وكآبة الروح تيبّس العظام» (أم ١٧: ٢٢)، وكذلك «القلق في قلب الإنسان يؤلمه، والكلمة الطّيّبة تفرّحه» (أم ١٢: ٢٥). وكذلك ما كتب سيراخ في كتاب حكمته: «لا تسلّم قلبك إلى الحزن، ولا تعذّب نفسك بالتأمّل. فرح القلب حياة للإنسان، والبهجة تطيل أيّامه. غَنِّج نفسك وفَرّج عن قلبك، واطرد الحزن بعيدًا عنك. فالحزن أودى بحياة كثيرين، ولا منفعة فيه لأحد» (سي ٣٠: ٢١-٢٣).

مع أنّنا نعلم كم من المشقّات قاسى القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، إلاّ أنّه وجد الملاذ والتعزية بقرب المسيح فقط. وهذا ما يظهر كثيرًا في رسائله إلى الشمّاسة أوليمبيا. في إحدى الرسائل يكتب مؤاسيًا: «رغم ذلك فحينما أتطلّع إلى المصائب لا أتخلّى عن الرجاء في ما هو أفضل، آخذًا في الاعتبار من هو الربّان في كلّ هذا. فإن كان لا يحقّقه منذ البدء وبسرعة، فهذه عادته. فهو لا يبيد هذه الشرور الفظيعة في البدء، لكنّها متى ازدادت وإلى أقصى حدّ، ومعظمنا ألقي في اليأس، حينها يعمل بطريقة تفوق كلّ توقّع، مستعلنًا قوّته، ومشدِّدًا

صبر مقاسي هذه المصائب. فلا يثبط عزمك. فهناك شيء واحد رهيب يا أوليمبيا، تجربة واحدة حقيقيّة، وهي الخطيئة؛ أمّا بالنسبة إلى كلّ ما عداها، المكائد، العداوات، الخداع، الافتراء، الإهانات، الاتّهامات، المصادرة، المنفى، سيف العدوّ القاطع، التهلكة في الأعماق، النضال ضدّ كلّ العالم، وكلّ ما قد يخطر في بالك، إنّما هي أخبار باطلة. فمهما كانت طبيعة تلك الأمور فهي عابرة وفانية، وتؤثّر في الجسد الفاني من دون إيذاء النفس اليقظة. لذلك فالمغبوط بولس، إذ برهن تفاهة ملذّات هذه الحياة وأحزانها، أعلن الحقيقة الكاملة في عبارة واحدة حين قال: «فالذي نراه هو إلى حين» (٢كو ٤: ١٨)[11].

أتدركين عظم المكافأة ولو في مرض صاحب الروح الشاكرة؟ لا شيء يا أوليمبيا يضيف إلى الرصيد أكثر من تحمّل المعاناة بصبر. فهذه ملكة الفضائل، وكمال التيجان، وبمقدار ما تتفوّق على كلّ أشكال البرّ الأخرى، فهذا الشكل بذاته أبهى من البقيّة. فلا سلب المتاع، حتّى وإن جرّدنا من كلّ أملاكنا، ولا نقصان الكرامة ولا النفي من الوطن ولا التهجير لأرض بعيدة ولا إرهاق العمل وكدحه ولا السجن ولا القيود ولا التقريع ولا الامتهان ولا التهكّم (ولا بالطبع أن تفتكري بأنّ احتمال كلّ هذه بشجاعة صبر قليل، كما برهن إرميا النبيّ العظيم الذي لم يبتئس بتجارب من هذا النوع)؛ حتّى هذه البلايا، ولا خسارة الأبناء وإن عدمناهم فجأةً ولا اعتداءات الأعداء المستمرّة ولا أيّ شيء من هذا القبيل، كلا ولا حتّى أوج الآلام كالموت، مع كلّ بغضها وفظاعتها، ثقيلة الوطء كضعف الجسد.

عندما حلّت بأيّوب كلّ تلك المصائب في برهة من الزمان،

[11] St. John Chrysostom, Letters to Olympias (1). The Early Church Fathers.

وخسر أرضه، بيته، مواشيه وأولاده، موج متلاطم وظلمة حالكة وعميقة والنوّ لا يحتمل، لم تعذّبه الكآبة، وبالكاد أحسّ بما يدور حوله، باستثناء أنّه رجل وأب. أمّا لمّا أسلِم للمرض والقروح فاشتهى الموت، وعندها رثى لنفسه وناح، حتّى تفهمي كم أنّ معاناة كهذه شديدة الوقع أكثر من غيرها، والصبر في هذا هو الأرفع»[12].

منذ القيامة، نشعر ونحن تحت الصليب بالتعزية والراحة من كلّ آلام الروح، من أيّ مصدر أتت ومهما كانت قوّتها. في كلّ محننا نقول مع بولس الرسول: «أستطيع كلّ شيء بالمسيح الذي يقَوّيني» (في ٤: ١٣). بموقفنا هذا نتجاوز تجارب هذا العالم وآلامه، حائزين الجرأة والقوّة. القوّة من السيّد الذي قال «قلت لكم هذا كلّه ليكون لكم سلام بي. ستعانون الشدّة في هذا العالم، فتشجّعوا. أنا غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٣).

إلى جانب كون ألم النفس قاتلاً، ونتيجة للتجربة، فإنّه قد يكون مدخلاً إلى الخلاص. إدراك الخطيئة يسوق الألم العميق والندم، ابتئاس القلب المدرّ دموعًا وتنهّدات. الألم الروحيّ، في هذه الحال، هو ألَم الشفاء والراحة في التوبة. إنّه ألَم الهدوء الداخليّ والسكون المقدّس. ينقّي وينعش، يصالح ويخلّص. الألم الروحيّ هذا هو حزن النفس المقدّس، الذي يحقنها بالحلاوة والهدوء. الألم النفسيّ هو وعي الحرمان من الوجود المقدّس. إنّه الحزن على خسارة الله.

ليس حزن الألم النفسيّ حزن يأس إنّما حزن سرور، لأنّ في حزن الفرح هذا وجع الفشل البشريّ، ولكنّه في الوقت عينه رجاء لأنّ الرحمة والمحبّة الإلهيّتين «احتملتا طويلاً آثامنا غير راغبتين بهلاك أيّ

[12] St. John Chrysostom, Letters to Olympias (2). The Early Church Fathers.

منّا بل أن يتوب الجميع» (٢بط ٣: ٩).

عندما يبدي أصدقاؤنا وأقاربنا بعض التعاطف نجد راحةً نفسيَّة تشدّدنا لاحتمال آلامنا. ألَم يكن هذا سبب وجود أصحاب أيّوب بقربه؟

الحياة لن تكون كذلك بدون الألم، إنّها حالة البشريّة.

القدّيس يوحنّا السلّميّ يقول: «رُبّ مرض كان للتنقية من الزلاّت ورُبّ آخر لتذليل الذهن. إنّ سيّدنا وربّنا الكلّيّ الصلاح إذا رأى البعض متكاسلين في النسك إلى الغاية يذلّل أجسادهم بأحد الأمراض بمنزلة نسك بلا تعب، ولربّما طهّر به نفوسهم أحيانًا من الأفكار الشرّيرة والأهواء»[١٣].

يجب ألاّ نقول إنّ الله يحزننا. «فهو ولو عاقب يحنو بحسب كثرة رأفته. لأنّه من كلّ قلبه لا يذلّ ولا يعذّب بني البشر» (مرا ٣: ٣٢-٣٣). والقدّيس يعقوب في رسالته يقول أيضًا: « إفرحوا كلّ الفرح، يا إخوتي، حينما تقعون في مختلف أنواع المحن. فأنتم تعرفون أنّ امتحان إيمانكم فيها يلد الصبر. فليكن الصبر حافزًا لكم على العمل الكامل حتّى تصيروا كاملين من جميع الوجوه، غير ناقصين في شيء... وإذا وقع أحد في محنة، فلا يقل هذه محنةٌ من الله لأنّ الله لا يمتحنه الشرّ ولا يمتحن أحدًا بالشرّ» (يع ١: ٢-٤، ١٣).

تحت عنوان «الأشياء العتيقة قد مضت» كتب المتروبوليت جورج خضر (جريدة النهار ٧ شباط ٢٠٠٩):

«الاثنين الماضي كنّا في عيد دخول المسيح إلى الهيكل، ويقال له في اليونانيّة عيد اللقاء، وإنّي لمتّخذه رمزًا لأقول ما وددت قوله.

[١٣] السلّم إلى الله. يوحنّا السلّميّ. تعريب رهبنة دير الحرف. منشورات النور. مقالة ٢٦ عدد ٥٤ - ٥٥ ص ١٤٨.

فبعد أن صارت الكنيسة شعب الله، ابتلع المسيح كلّ شيء قديم ليجعله جديدًا. من أمات الأشياء القديمة في نفسه يحيا مع المسيح الذي هو الجدّة كلّها.

لقد انهدمت الهيكليّات القديمة التي تحمل بذرة الموت وحضارة الموت، لتحمل بذرة الحياة وحضارة الحياة. كلّ واحد منّا فيه نزعة إلى التحجّر، أي إلى تحويل الحياة إلى هياكل مصنوعة بالأيدي، بحيث ينقطع عن إحيائه الينبوع الذي كان يسيل فيه بعد أن تفجّر في جوف الله. وهكذا يفترض أن يعتبر العتيق فيه عتيقًا كما الخلايا في الجسم تعتق وتسبّب الموت.

كلّ إنسان ميال إلى العتاقة لأنّ الجديد مقلق، لكونه يفترض المسؤوليّة، أي إرادة التغيير كأنّنا مولودون جديدًا وهذا في المصطلح الإنجيليّ يسمّى الولادة من الروح.

قصّتنا مع الحياة هي كيف نكافح قوّة الموت الروحيّ الذي فينا. كيف نواجه الاهتراء. ما يسمّى السقوط في الكنيسة الشرقيّة ليس خطيئة ورثناها منذ البدء. أنت لا ترث مسؤوليّة سواك، ذلك بأنّ كلّ نفس تموت بموتها، أي بسوئها الداخليّ وتحتمل ذنبها لا ذنب سواها. غير أنّ الإنسان يولد معطوبًا. كلّ يوم من حياته يقرّبه من الموت ويدخل دائمًا إلى كيانه ما يعرقله عن تحقيق دعوته الإلهيّة، ما يحول دون صعوده أو يؤجّل صعوده. بهذا المعنى العميق «كلّ نفس ذائقة الموت». بالتعبير القديم هذه هي تجارب إبليس، أو هجمات الشهوة، فإذا استغرقت في شهوات الأرض تفقد ميلك إلى رغبة في السماء حيث تجديد الحياة.

كلّ خوف من الموت يجعلك تصطنع هيكليّات، عادات تنكفئ

إليها وتظنّ أنّها تحميك من مختلف تعابير السقوط. في الحقيقة الإنسان في هروب.

يحسّ أنّ وجه الله إليه مطاردة أو أنّ الله يطلب الكثير ويتطلّب الجهد، وهذا يهدّد الهياكل التي اصطنعناها في داخل النفس، نلجأ إليها وسرعان ما نلحظ أنّ اللجوء إليها لا يشفينا.

سمعان الشيخ لمّا اقتبل الطفل يسوع تمنّى إلى الله أن يأخذه إليه. «إنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك» قال. والخلاص جدّة الله إذ الله ما كان أبدًا بعتيق، هذا الكلام، يخفي عند قائله قصده أنّ الهياكل العتيقة فيّ عندما واجهت طراوة المسيح لها أن تنقرض، وأنا أصير إنسانًا طريئًا كهذا الطفل. وإذا صرت كذلك أشتهي طراوة الله وأشفى.

الخلاص ليس فقط يخلّصك. إنّه يجدّدك لأنّك إذا أبصرت الله محييًا تحيا. تحيا بحياته. «من جاء من فوق، فهو فوق الناس جميعًا. ومن كان من الأرض فهو أرضيّ وبكلام أهل الأرض يتكلّم» (يو ٣: ١١) وهذا لا علاقة له بالأعمار «لأنّ مولود الجسد يكون جسدًا ومولود الروح يكون روحًا» (يو ٣: ٦).

السهر الدائم ينجّيك من الخوف. أطلب إلى الله أن يلازمك، أن يجعلك دائمًا خليقة جديدة قفزت فوق الموت. أخطر تجربة تعتريك هي الخوف. «المحبّة تطرح الخوف إلى الخارج». هذه صلابة ليست منك ولا تدوم من ذاتها. تبقى بالصلاة غير المنقطعة، بذكر اسم يسوع الذي إذا ردّده لسانك يصبح حضورًا وعند الحضور يتلاشى الخوف».

«أنت يا ربّ تحفظ سالمًا من يثبت ويحتمي بك. توكّلوا بالربّ إلى الأبد، لأنّ الربّ صخرة البقاء».

(إش ٢٦: ٣-٤)

الألم من جرّاء موت قريب

موت قريب أو محبوب هو أكثر ما يسبّب الحزن والألم. التجاوب المسيحيّ مع الحزن أبعد من أن يكون عملاً فرديًّا، فهو يشمل كامل الكنيسة. حتّى وإن كان المتألّم بعيدًا عن الكنيسة، لأيّ سبب، فلا مسيحيّ وحيد قطّ، فملاكه المعيّن من الله معه أبدًا.

يصارع الإنسان ليؤجّل الموت لأنّه لا يستطيع غلبته. يصارع ويتوجّع ليُديم الحياة أطول فترة ممكنة. يبدو الموت غريبًا عن الإنسان لأنّه متمحور حول الحياة. الموت هو نتيجة السقوط، ولكنّه حصل رحمةً لأجلنا حتّى لا يخلد الشرّ.

الموت ليس من الله وموت الإنسان ليس من المنظومة التي خلقها الله في البدء. فليس من الطبيعيّ أن يموت الإنسان. فناؤه «أجرة الخطيئة» (رو ٦: ٢٣). سليمان في كتاب سفر الحكمة يقول: «لا تسعوا وراء الموت بما ترتكبون من أخطاء في حياتكم ولا تجلبوا على أنفسكم الهلاك بأعمال أيديكم. فالله لم يصنع الموت، لأنّ هلاك الأحياء لا يسرّه. خلق كلّ شيء للبقاء وجعله في هذا العالم سليمًا خاليًا من السمّ القاتل، فلا تكون الأرض مملكةً للموت» (حك ١: ١٢-١٤). وتضيف «خلق الله الإنسان لحياة أبديّة، وصنعه على صورته الخالدة، ولكن بسبب حسد إبليس دخل الموت إلى العالم. فلا يذوقه إلاّ الذين ينتمون إليه» (حك ٢: ٢٣-٢٤). إذًا فتأثيره فينا يظهر وجود الشرّ على الأرض.

عندما نواجه موت عزيز يلفّنا الصمت ويتجهّم وجهنا بسبب

الألم الذي يكوينا من الداخل. إرميا النبيّ يشير إلى الألم الحسّيّ الذي يصاحب الألم الداخليّ بقوله: «أحشائي، أحشائي توجعني قلبي يئنّ بين جدرانه» (إر ٤: ١٩). بينما نعبّر عن الألم بالنوح والصراخ، بالدموع المدرارة، بوجه واجم تكسوه تجاعيد مرارة الحزن واليأس. إلاّ أنّ الحزن في الحقيقة، لا يعبّر عنه ويبقى صامتًا، في داخل النفس عميقًا، مهما حاول المتألّم أن يظهره. في معظم الأحيان تساعد الدموع على تعزية الفكر. الدموع تبرّد القلب تلطّف الجرح وتطلق الأحاسيس المكبوتة.

لاحقًا تتوضّح كآبة الحزن مع ما يرافقها من مرض وغَمّ. ألم القلب المكسور غالبًا ما ينجم عنه صمت عميق، صمت لا يحتمل. ألم النفس هذا يجعل الجسد يرتعش والعيون تدمع والنظرات ترنو إلى فراغ. وأحيانًا تفيض أنهار من الدموع وتتفوّه الشفاه بألفاظ حزينة مثيرة للشفقة ومتذمّرة. إلاّ أنّ حزن القلب هذا يصبح حلوًا بقرب المسيح، يصبح أرقّ إذ يتعمّد بآلامه المباركة وموته على الصليب. آنئذ تأتينا الراحة والتعزية.

نجد في العهد القديم أنّ ألم الموت يعبّر عنه دائمًا بالحزن وتاليًا الدموع، بالتفجّع والندب، المصاحب بالآلات الموسيقيّة أحيانًا. تفجّع يعقوب كثيرًا على ابنه المحبوب يوسف. في سفر التكوين نقرأ: «وشقّ يعقوب ثيابه ولبس المسح حدادًا على ابنه، وناح أيّامًا كثيرة. وقام جميع بنيه وبناته يعزّونه، فأبى أن يتعزّى وقال بل أنزل إلى عالم الأموات نائحًا على ابني. وبكى عليه يعقوب» (تك ٣٧: ٣٤-٣٥).

لاحقًا عندما مات يعقوب ندبه أولاده، وقد كتب: «فارتمى يوسف على وجه أبيه وبكاه وقبّله. وأوصى أطبّاءه بأن يحنّطوا أباه، فحنّط الأطبّاء يعقوب. واستغرق تحنيطه أربعين يومًا، وهي المدّة الّتي

تكتمل فيها أيّام المحنّطين. وبكى المصريّون على يعقوب سبعين يومًا» (تك ٥٠: ١-٣).

وفي سفر صموئيل الثاني نقرأ عن تفجّع داود على فقد ابنه أبنير: «وقال داود ليوآب ولجميع الذين معه مزّقوا ثيابكم وٱلبسوا المسوح ونوحوا على أبنير. ومشى داود الملك وراء النعش. ودفنوا أبنير بحبرون، فرفع الملك صوته وبكى على قبر أبنير، وبكى جميع الشعب. ورثى الملك أبنير. فقال أتموت يا أبنير بهذه البساطة ما كان قيد في يديك، ولا في رجليك، بل كمن يسقط أمام المجرمين سقطت. وظلّ الشعب يبكيه. وحاولوا أن يقدّموا لداود طعامًا، وكان نهار بعد، فأقسم وقال ويل لي من الله إن ذقت خبزًا أو شيئًا آخر قبل أن تغرب الشمس» (٢صم ٣: ٣١-٣٥).

وبالمثل نقرأ عن حزن داود على ابنه أبشالوم: «فاضطرب الملك وصعد إلى علّيّة فوق باب المدينة، وكان يبكي ويقول وهو يتمشّى يا ابني أبشالوم، يا ابني أبشالوم. ليتني متّ بدلاً منك يا أبشالوم ابني، يا ابني. وقيل ليوآب ها الملك يبكي وينوح على أبشالوم. فانقلب فرح النصر في ذلك اليوم مناحةً عند جميع الجنود حين سمعوا أنّ الملك حزين على ابنه» (٢صم ١٨: ٣٣ و١٩: ١-٢).

ونقرأ في سفر سيراخ نصائح خاصّة بالنوح: «إذرف الدموع يا ابني على الميت، وبادر إلى النواح كمن أصيب بأفدح الخسائر. كفّن جسده كما يليق، ولا تتهاون بدفنه. إبكه بمرارة وأكثر من النحيب، وأقم مناحةً بحسب ما يستحقّ ليوم أو ليومين لئلا تلام، ثمّ انصرف من حزنك إلى العزاء. الحزن يؤدّي إلى الموت، وهمّ القلب يهدّ العزيمة. الحزن في المصيبة لا مفرّ منه، والحياة في البؤس لعنة. لا تسلّم قلبك

إلى الحزن، بل اصرفه عنك وتذكّر مصيرك أيضًا. لا تنس أنّ الميت لن يعود، وأنّك لا تنفعه بل تضرّ نفسك. تذكّر أنّ مصيره مصيرك أيضًا البارحة هو، وغدًا أنت» (سي ٣٨: ١٦-٢٢).

وفي العهد الجديد نقرأ عبارات مشابهة. عويل ونواح في بيت يايروس لموت ابنته اليافعة (مر ٥: ٣٨) وكذلك الأرملة في نايين تتفجّع على موت وحيدها (لو ٧: ١٣). في جميع تلك الحالات لم يمنع يسوع البكاء والنوح، إنّما وجوده هدّأ من وطأة الحزن.

في كتاب «الحياة اليوميّة زمن المسيح» وتحت عنوان «إقامة ابنة يايروس» (متّى ٩: ١٨-٢٦، مر ٥: ٢١-٤٣، لو ٨: ٤٠-٥٦) يكتب ألفرد إدرشايم:

«تأخّر الربّ كثيرًا في طريقه إلى بيت يايروس. فالفتاة كانت في الرمق الأخير، ما استدعى أن يذهب أبوها إلى السيِّد، لم تمُت فقط، بل أنّ بيت النوح قد امتلأ بالأقارب والنساء النائحات والندّابات المستأجرات والموسيقيّين، تحضيرًا للدفن. تأخُّر يسوع المقصود بالحضور حين موت لعازر يجعلنا نتساءل إن كان تصرّف هنا كما هناك. ولكن إن لم يكن كذلك فإنّ العناية الإلهيّة لا تترك شيئًا للصدف، بل كلّ شيء مصمّم. الظروف التي في تزامنها تصنع الحدث، قد تكون حوادث طبيعيّة، لكنّ ارتباطها هو بترتيب إلهيّ ولهدف أسمى، وهذا يشكّل العناية الإلهيّة. في فترة التأخير هذه أتى الرسول ليخبر يايروس بموت ابنته. سمعهم يسوع وهم يهمسون في أذن الحاكم بألاّ يُتعب المعلّم أكثر من ذلك، لكنّه لم يُعر الأمر اهتمامًا، خلا ما خصّ الأب. النصح المؤكّد بعدم الخوف، آمن فقط، ينبّهنا إلى إيمان الحاكم المهدّد بالإخفاق، ولربّما هذا ما دفع بالمسيح إلى التأخُّر.

وسط «الجلبة» والنواح، نواح النذّابات الحقيقيّ والمستأجر، ونغمات المزمار الحزينة، وهذه تحضيرات دفن شرقيّ، يدخل يسوع بيت العزاء بهدوء عظيم للانتصار المؤكّد على الموت. وبهدوء يخبرهم، كما يخبرنا في الحالات المشابهة بأنّ الفتاة إنّما هي نائمة لا مائتة. وحتّى معلّمو الشريعة استعملوا تعبير «النوم» عندما يكون أثقل وأقوى من استعمال تعبير «الموت». وقد يكون يسوع استعمل هذا التعبير المزدوج المعنى «الفتاة نائمة». وقد فهموه جيّدًا على طريقتهم، ولكنّهم لم يفهموه على الإطلاق.

كثيرون ممّن يسمعون هذا الكلام الآن، والذين قيل أمامهم حينها، في غلاظة واقعيّتهم، ضحكوا ازدراءً. ألم يعلموا يقينًا بأنّها ماتت فعلاً، حتّى قبل إرسال الرسل لتجنّب إتعاب يسوع بالقدوم؟ ومع ذلك فإنّ ازدراءهم أظهر شيئين: معرفة من في البيت الأكيدة بموت الفتاة، واعتبار كتّاب الأناجيل أنّ إقامة الأموات ليست فقط أبعد من المدى العاديّ للعمل المسيّانيّ، بل كشيء إعجازيّ حتّى بين معجزات المسيح. وهذا مثبت بدليل أنّ الكتّاب لم يدوّنوا الحدث بخفّة إنّما بمعرفة تامّة بما لها من تأثير في إيماننا.

أوّل ما يجب عمله هو «إخراج» المنتحبين الذين لم يكن وجودهم في هذا البيت موافقًا، الذين أثبتوا بتصرّفاتهم أنّهم لم يكونوا مستحقّين معاينة استعلان المسيح العظيم. وسرد الحادثة يترك الانطباع أنّ والد الصبيّة كان، خلال ذلك، كالمخدّر والمستسلم بدل أن يكون إيجابيًّا. الخوف الكبير الذي اعتراه لحظة أبلغه المرسلون موت وحيدته ما زال يخدّر إيمانه. رافق المسيح بدون المشاركة في ما حدث؛ شهد أبّهة المأتم في منزله بدون أن يتدخّل، وسمع الاستهزاء الذي استفزّه إعلان

المسيح الملكيّ عن الانتصار على الموت، بدون أن يمنعه. إيمانه كان مثل «فتيل بالكاد يشتعل» لكنّه «لن يُطفئه».

قاد يسوع الوالد والوالدة إلى حيث سجِّيت الصبيّة يتبعه الرسل الثلاثة، الشاهدون على أهمّ أعماله وأعظم مجده الأرضيّ، وكذلك على آلامه الأعمق. بدون شكّ أو تردّد أمسك بيدها وقال كلمتين فقط: «يا صبيّة قومي!» فقامت الصبيّة من ساعتها». دهشتهم العظيمة و«أمره الصارم» بألاّ يخبروا أحدًا، دليل آخر، كم كان إيمانهم القليل غير مستعدٍّ لذلك وفي ضعفه أُعطي لهم.

أكانت نائمة فعلاً لا ميتة؟ أأشارت كلمات المسيح ذات المعنى المزدوج إلى نوم حرفيّ؟ هنا إذًا مثل آخر لمعنى مزدوج: لمن لهم قلب يفهم، وللذين لم يفهموا.

فالمعرفة الكاملة والحقيقيّة، بأنّه ابن الله، تأتي بعد نضاله وآلامه. وإيماننا به يكمن في أنّه المخلّص المتألّم أوّلاً ومن ثمّ ابن الله»[14].

في الكتاب ذاته وتحت عنوان «إقامة شابّ نايين – مقابلة الحياة والموت» (لو ٧: ١١-١٧) نقرأ ما يلي:

«في الطريق المؤدّية من كفرناحوم إلى نايين يفجّر ربّ الحياة أبواب الموت لأوّل مرّة. هنا وقرب باب المدينة الشرقيّ المفضي إلى المدفن القديم، التقى الحشد الكبير المصاحب أمير الحياة بالجمع الكبير الآخر المشيّع الميت إلى مثواه الأخير. من منهما سيفسح الطريق للآخر؟ نحن نعلم ما كانت تقاليد اليهود القديمة تستوجب. فمن بين كلّ الموجبات، فرضوا بأكثر تشديد، إنسانيّةً وتديّنًا، وحتّى الله

[14] Life and Times of Jesus the Messiah. Created by Alfred Edersheim. Publisher: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library Chapter 26. The healing of the woman - Christ's personal appearance – the raising of Jairus' daughter.

نفسه، مؤاساة الحزانى واحترام الميت بتشييعه إلى الدفن. لا شكّ في أنّ الاعتقاد الشعبيّ بأنّ الروح تحوم فوق الجثّة، قد أرخى بثقله على المشاعر. شعائر اليهود وعاداتهم لم تتبدّل كثيرًا بما يخصّ الموتى. القلق المترقّب، الاستعمال العقيم للأساليب الشائعة، أو ما هو متوفّر للأرملة، الاهتمام العميق، تحرّق الأمّ الانفعاليّ لاستعادة كنزها، رجاؤها وسندها الأرضيّ الوحيد؛ ومن ثمّ شحوب الضوء التدريجيّ، الوداع، ودفق الحزن الشديد: كلّها خصائص عامّة، مألوفة ومرعيّة في مشهد كهذا. بالإضافة إلى ذلك لدينا هنا أيضًا معتقدات اليهود عن الموت والحياة ما بعد الموت؛ معرفة تكفي للخوف وليس للتعزية الراسخة، ما يجعل أكثر الأحبار ورعًا غير متأكّد من مستقبله.

نفخة البوق المعروفة تنبئ الآن بأنّ ملاك الموت قد أصدر وصيّته الأليمة. في الحزن العميق شقّت الأمّ رداءها العلويّ. واجبات الميت الأخيرة أنجزت. وضع الجسد على الأرض وغسل؛ قصّ شعره وقلّمت أظافره، طيّب وكفّن بأفضل ما استحصل من قماش؛ والمرأة الآن تبكي وتندب، على الأرض جالسة لا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا.

لكن وسط كلّ هذه البهرجة الفارغة لا تعزية لقلب تلك الأرملة، ثكلى وحيدها. يمكننا تتبّع حركة الموكب الحزين بالخيال، مذ تحرّك من البيت الموحش الكئيب. في الخارج، خطيب الجنازة، إن وظّف، يتقدّم النعش، مستذكرًا أعمال الراحل الصالحة. أمام النعش مباشرةً تسير أمّه. وخلف النعش الأقارب والأصدقاء ومن خلفهم الجمع المتعاطف.

بالانتقال إلى ذلك المشهد، يخرج من تلك المدينة القريبة «ذلك الحشد» المصاحب للميت، بعويل وتفجّع نسوة، تصاحبهنّ المزامير

ورنين الصنوج الكئيب، ولربّما البوّاقون أيضًا، وسط تعاطف عامّ. على الجهة المقابلة من الطريق يندفع الجمع الكبير المصاحب «لأمير الحياة». ههنا يتلاقى الحياة والموت. الصلة بين الجمعين حزن الأرملة العميق، يميّز المتقدّمة النعش، تقود إلى القبر ذلك الذي أعطته الحياة. يميّزونها لكنّها لا تميّزه، لم تره حتّى. ما تزال تنتحب، حتّى بعدما تقدّم أمام موكبه خطوةً أو اثنتين، مقتربًا منها، لم تلاحظه فهي ما تزال تنتحب. ينظر إليها متعاطفًا. دموعها الصامتة المرّة التي أعمت عينيها كانت أفصح لغة عن اليأس والحاجة القصوى، التي تسترحم قلبه دائمًا. هو من حمل أوجاعنا. بالمقارنة نتذكّر عادات الدفن السائدة في فلسطين، «أعولوا يا كلّ المنكسري القلوبّ». لم يكلّم يسوع الجموع من حوله، بل على نحو مميّز قال لها: «لا تبكي». وما قاله فعله. لمس النعش، ربّما السلّة مجدولة الأغصان حيث سجّي الشاب الميت. أرهب أعظم المنجّسات، لمس الميت، إذ أحاطه تفسير معلّمي الشريعة بفظائع لا حدّ لها. عمله كان منافيًا لتعليمهم، لا خضوعًا للطقوس، بل بما يتناسب والضرورة.

وإذ لمس النعش توقّف حاملوه. لم يكن بمقدورهم توقّع ما سيحدث. لكن رعب العجب الآتي، إن جاز التعبير، طيف فتح أبواب الحياة، ظلّلهم. كلمة أمر سيّديّة، «فجلس الميت وبدأ يتكلّم».

الظافر الإلهيّ، في مقابلته العرضيّة مع الموت، دحر المدّ بذراع مقتدرة، ومن بوّابات السماء التي فتحها تسرّب (تسلّل) إلى عالمنا أوّل شعاع لليوم الجديد»[١٥].

[15] Life and Times of Jesus the Messiah. Created by Alfred Edersheim. Publisher: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library Chapter 20. The Raising of the young man of Nain-the meeting of life and death.

وكذلك حزن الموت الذي عند الصليب يشكّل أعظم امتحان للإنسان. بكى يسوع عند قبر لعازر (يو ١١: ٣٥) عندما شكت مرثا وبكت على موت أخيها. وبكى كذلك عندما دنا موته، «وبدأ يشعر بالحزن والكآبة» (متّى ٢٦: ٣٧).

وفي فصل «موت لعازر» وإقامته (يو ١١: ١-٥٤) يكتب المؤلّف ألفرد إدرشايم:

«إقامة لعازر تحدّد أعلى مرحلة، لا بالاستعلان، بل في خدمة ربّنا؛ إنّها الذروة في التاريخ حيث الكلّ معجزة من الشخص إلى الحياة، الكلمات والعمل. وفي ما خصّ يسوع، فعندنا البرهان الأكمل لألوهيّته وبشريّته؛ أمّا ما اختصّ بالشهود، فأقصى استعلان الإيمان والجحود. في هذه القمّة يجتمع الطريقان ويفترقان. ومن هذه الذروة نستشرف أوّل إطلالة على موت المسيح وقيامته، والتي كانت إقامة لعازر أوّل استهلال نموذجيّ لها.

ونستشعر غريزيًّا بأنّ معجزة إقامة لعازر تستدعي أكثر من مجرّد صيغ منطقيّة. فالقلب والعقل يلتمسان ما هو أبعد من الأسئلة عمّا هو ممكن منطقيًّا أو مستحيل. فنحن نسعى وراء مثال حيّ، إن جاز التعبير، وقد نلناه. نلناه، أوّلاً، في شخص الله المتجسّد، الذي جاء لا ليبيد الموت بل الذي في وجوده وحضوره ينتفي المرض والموت.

لعازر قد مات! ومن الواجب القول بأنّ أختيه لم تشكّا في ذلك. ونسمع الكلمات عينها التي ردّدتاها للربّ: «يا ربّ، لو كنت هنا لما مات أخي». قد ظنّتا أنّ من أرسلتاه إليه قد وصل متأخّرًا وأنّ لعازر لم يكن ليموت لو أعلمتاه في الوقت المناسب، أو لو أنّه تمكّن من المجيء - على كلّ حال. لو كان موجودًا. حتّى في لوعتهما، لم تخنهما

الثقة أو شكّتا ولا وزنتا كلامهما، أظهرتا فقط ثقة حبّ. أحبّ الربّ مرثا وأختها ولعازر. المسيح ليس في عجلة أبدًا: أقلّه في مهمّات محبّته. وليس في عجلة قطّ لأنّه واثق دائمًا.

ثمّ تكلّم على لعازر، «صديقهم» الذي «رقد» – كما في التعابير اليهوديّة المجازيّة الشائعة، وفي المسيحيّة أيضًا، وعلى ذهابه لينهضه من رقاده.

وصل يسوع إلى بيت عنيا. لم يعرف الذين في بيت الراقد ذلك. كانت بيت عنيا تبعد نحو خمسة عشر فرسخًا، ما يوازي ثلاثة كيلومترات، عن أورشليم، وأصدقاءٌ كثر أتوا من المدينة ليعزّوا هذه العائلة الوجيهة، كما هو واضح، وذلك تنفيذًا لأكثر تعليمات الربّانيّين إلزامًا أي تعزية الحزانى.

قد يقرع الحزانى صدورهم، يفركون أيديهم، يضربون الأرض بأقدامهم، أو ينفجرون في نوبات عويل وأغان حزينة، بمفردهم أو كجماعة. في كلّ الأحوال التعزية كما هي الحال مع الوجهاء، تقدّم إمّا في البيت، أو في أحد المواقع حيث تبادل الحاملون النعش، إمّا عند المدفن.

أمّا في السبت، يوم الربّ المقدّس، فالحزن يُقطع، «واسترحن في السبت حسب الوصيّة».

لا شكّ في أنّ اليهود كانوا «يعزّون» الأختين في حينها. وقد يكونون قد ردّدوا عبارات تعزية مثل: «ليعزّكما ربّ التعزية! مباركٌ معزّي الحزانى!». ولم يكونوا ليتخيّلوا أنّ أمنية كهذه على وشك أن تتحقّق حرفيًّا. أسرعت مرثا لتقابل السيّد. ولا كلمة تذمّر، ولا دمدمة أو شكّ خرجت من شفتيها، فقط ما اعتادت الأختان أن تقولاه

لبعضهما البعض خلال تلك الأيّام الأربعة المريرة، حين مكّنتهما فترات الانفراد، بأنّه لو كان هناك لما مات أخوهما. وحتّى الآن، حين أصبح الوقت متأخّرًا جدًّا، إذ لم تنالا ما طلبتا إليه برسولهما، إذ وجب، لأنّه لم يُدع، مع أنّه قال إنّ ذلك المرض ليس للموت؛ وإلاّ لأنّه أخّر عمله حتّى مجيئه. ومع ذلك تمسّكتا بقولهما، إنّه حتّى الآن سيمنحه الله ما يطلب إليه. هل عنتا أكثر من ذلك: أكانت كلماتهما نبوءةً بغير وعي، أو صوتًا ورؤى للسماويّات، كما قد يحدث لنا في غمرة انفعالات حزننا، أم أفكار إيمان أسمى، أسرع ممّا يتجاوز مخيّلتنا؟ ما كان بالإمكان أن يكون موقفهما تعبيرًا عن رجاء حقيقيّ بالمعجزة التي على وشك التحقّق، وإلاّ لما حاولت مرثا ثنيه عندما أمر بدحرجة الحجر.

بكلّ الحرفيّة والحقيقة تكلّم الربّ لمّا قال لمرثا إنّ أخاها سيقوم ثانيةً، مع أنّها فهمت كلامه على القيامة في اليوم الأخير. لكنّ يسوع أشار إلى العلاقة بينه وبين القيامة؛ وما أجابها به حقّقه بإقامة لعازر من الموت. القيامة والحياة ليستا هبةً خاصّةً إن كان للكنيسة أو البشريّة، لكنّهما مرتبطتان بالمسيح. قيامة الأبرار والقيامة العامّة هما نتيجة العلاقة، حيث تفي الكنيسة والبشريّة عمومًا بوعدهما للمسيح. بدون المسيح ما من قيامة. حرفيًّا، هو القيامة والحياة، والتعليم الجديد عن القيامة كان هدف إقامة لعازر. وإقامة لعازر ما هي إلاّ استشراف قيامته، هو «باكورة الراقدين».

التطبيق الخاصّ، بالأحرى استعلان هذه القيامة، هو في إقامة لعازر، إلاّ أنّ التعليم المصاحب هو لجميع المؤمنين: «من آمن بي وإن مات فسيحيا، ومن كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد».

فقط عندما نفتكر في معنى كلمات المسيح السابقة بأنّ القيامة والحياة هما منه ونالهما فقط فيه وبه، نفهم جواب مرثا إذ سألها: «أتؤمنين بهذا؟» نعم، يا سيّد. أنا أؤمن كلّ الإيمان بأنّك أنت المسيح ابن الله.

يبدو أنّ السيّد أرسل في طلب مريم. وإذ سمعت بحضوره ودعوته، قامت مسرعة، وقد تبعها اليهود وهم يحسبون أنّها ذاهبة إلى القبر لتبكي.

حمل أوجاع البشر وآلامهم. تنازل واتّحد بالبشريّة فكان شافيًا لها وحمل أوجاعها.

هم الآن أمام قبر لعازر. يأمرهم السيّد بدحرجة الحجر الكبير الذي يسدّ المدخل. وسط التردّد الذي سبق التنفيذ، ارتفع صوت، صوت مرثا. يسوع لم يتكلّم على إقامة لعازر. ولكن ما الذي سيعمله؟ لم تفكّر قط بأنّه يريد رؤية وجه الميت. شيء لا يوصف تملّكها. لم تجرؤ على الإيمان؛ لم تجرؤ على الجحود. لربّما لم ترهب الفشل، بمقدار ما شكّت، وهي تفتكر بالمسيح أمام هذا الفساد بوجود اليهود. إنّما، كما عادتنا، نحبّه حتّى في الجحود؟»[16].

أخبر يسوع تلاميذه في آخر إرشاد لهم بأنّهم سيحزنون وينوحون، وهو كان يعدّهم لرحيله (متّى ٩: ١٤، يو ١٦: ٢٠). تلاميذه والنسوة اللواتي تبعنه في رحلته الحزينة إلى الجلجلة «حزنوا وناحوا عليه» (لو ٢٣: ٢٧)، «ومريم وقفت خارج القبر تبكي» تنظر إليه، إنّما، «لمَ تبكين؟» (يو ٢٠: ١١-١٣). هذا كان جواب الملاكين كما جواب الربّ

[16] Life and Times of Jesus the Messiah. Created by Alfred Edersheim. Publisher: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library Chapter 21. The death and the raising of Lazarus-the question of miracles and of this miracle of miracles-Jewish burying-rites and sepulchers.

الناهض من بين الأموات. هو كذلك يسأل كلّ واحد منا، كلّ من يحزن وينتحب عند قبر حبيب، «لِمَ تبكي؟». عندما ظهر الربّ لمريم لم يستهجن بكاءها الصادق فقط بل عاملها بكلّ رقّة (يو ٢٠: ١١-١٦). عندما نرمي أحزاننا على منكبيه سيعاملنا كما عامل مريم، بلطف واهتمام خاصّ.

يخبرنا سفر أعمال الرسل عن رجم إستفانوس، أوّل الشهداء، حتّى الموت وبأنّ «بعض الأتقياء دفنوا إستفانوس وأقاموا له مناحةً عظيمةً» (أع ٨: ٢)، وكان شاول حاضرًا. كذلك بكت الأرامل وناحت على موت طابيثا (أع ٩: ٣٩).

بالعودة إلى موت إستفانوس وقول بولس لاحقًا «لكي لا تحزنوا كما يحزن الذين لا رجاء لهم» (١تس ٤: ١٣). في رأيي، وبدون الإقلال من خبرة بولس، وما لم يذكره، بأنّه كان هناك شيء مختلف ومشهديّ، في الطريقة التي حزنت وناحت فيها تلك الجماعة الصغيرة على موت أحد أفرادها. هذه الجماعة كانت ما تزال جزءًا من المجتمع لكنّ ممارستها اختلفت، في ما يخصّ العبادة ونواحي حياتها اليوميّة الأخرى. من بعد قيامة يسوع وصعوده صار هؤلاء يتعاملون مع الموت بطريقة مختلفة. ما عاد الموت مخيفًا لأنّ الربّ قد هزم أبواب الموت وكسّرها، الذي ما عاد النهاية، بل مرحلةً لنكون مع الربّ الناهض. كان موقف الرسل من استشهاد إستفانوس مختلفًا جدًّا الآن. نواحهم لم يكن نابعًا من يأس بل من سلام. لم يذكر السفر أيّ شيء عن استئجار عازفين أو نوّاحين ولم يمارسوا أيًّا من العادات الوثنيّة الأخرى. لا شكّ في أنّ المجتمع اليهوديّ، بمن فيهم بولس، لاحظ هذا التغيّر. وقد يكون بولس تذكّر هذا الموقف عندما كتب عن الموت، شاهدًا سابقًا على

رجاء تلك الكنيسة الحديثة النشوء في المسيح، وإيمانها العظيم المتجلّي والكامن خلف النواح.

في العهد الجديد ليس الموت المسبّب الوحيد للحزن، بل الفراق أيضًا. كذلك كان حزن التلاميذ عندما أخبرهم الربّ عن آلامه (يو ١٦: ٢٢). وكذلك عندما همّ بولس بترك ميليطس «بكوا كثيرًا وعانقوا بولس وقبّلوه. وكان أكثر ما أحزنهم قوله لهم لن تروا وجهي بعد اليوم» (أع ٢٠: ٣٧-٣٨). أوليس ذلك حال المطلّقين أيضًا؟

القدّيس غريغوريوس النيصصيّ يعبّر عن حزنه على رقاد صديقه باسيليوس، فيقول: «باسيليوس، كبير بين القدّيسين، رحل عن هذه الحياة إلى الله؛ والدافع إلى الحزن تشاطرته كلّ الكنائس. أمّا أخته المعلّمة فما تزال حيّةً؛ ولذا فقد سافرت إليها، طامحًا إلى التعاطف معها على موت أخيها. اهتزّت نفسي لهذه الصفعة المؤلمة، وطلبت من يشعر بها مثلي، لنتشاطر الدموع. لكن لمّا اجتمعنا أيقظ وجود المعلّمة آلامي. اقتبست قول الرسول عن واجبنا بألاّ «نحزن على رقادهم» لأنّ فقط «الذين بلا رجاء» يشعرون هكذا. فسألت وقلبي يعتصره الألم، كيف يمكن للبشر أن يمارسوا ذلك؟ الذين ينظرون إلى فراش الموت بالكاد يحتملون المنظر. لماذا الأدوية مكرّمة بين البشر؟ لأنّها تحارب الموت إلى حين... من الطبيعيّ أن يكون الموت مرهبًا لنا، فكيف من الممكن للباقي على قيد الحياة أن يعمل بهذه الوصيّة ويتمالك نفسه لرقاد أصدقائه؟»[١٧].

الكتاب المقدّس لا يذكر أيّ شيء عن الحزن العميق الذي اعترى تلاميذ المعمدان. لا شكّ في أنّهم حزنوا وتألّموا كثيرًا لموته،

[17] St. Gregory of Nyssa, On the Soul and the Resurrection. The Early Church Fathers.

لقطع رأس هذا النبيّ العظيم ولأيّ سبب! ولا شكّ أيضًا في أنّهم تبعوا المسيح وبه تعزّوا؛ لأنّ المسيح عمل آيات كثيرة أمامهم، وأيضًا حين قال لهم «الموتى سيقومون» عندما أرسلهم يوحنّا سابقًا (لو ٧: ٢٠-٢٢).

تعرّض يسوع للجوع (متّى ٤: ٢)، والتعب (يو ٤: ٦)، والعطش (يو ٤: ٧)، والنوم (مر ٤: ٣٨) وأيضًا للألم. قاسى يسوع الألم الجسديّ بأقسى أنواعه. الألم على الصليب أصابه بالعطش (يو ١٩: ٢٨) وشوّهه لدرجة أنّه لم يحرِّك عطفهم بل أثار خوفهم وازدراءهم (إش ٥٢: ١٤، ٥٣: ٣). هذه الآلام، الصلب وجسد المسيح المطعون وموته توصلنا إلى سرّ خلاصنا وفدائنا. فعلى الصليب «حمل الربّ خطايانا في جسده» (١بط ٢: ٢٤). وإلهنا: «فصالحكم الآن في جسد المسيح البشريّ» (كول ١: ٢١-٢٢). بآلام يسوع وبذبيحة نفسه قدّسنا مرّةً واحدةً وإلى الأبد. وهذا السرّ تمّ بقيامته. ومن بعد القيامة اتّخذ «جسدًا ممجّدًا» (في ٣: ٢١)، و«جسدًا روحانيًّا» (١كور ١٥: ٤٤). بمقدار ما تندمج أجسادنا في المسيح، بما أنّنا أعضاؤه وهيكل الروح القدس (١كور ٦: ١٩)، وبما أنّنا نتناول جسده المقدّس ودمه الكريم في سرّ الإفخارستيا، وبما أنّنا نتشدّد ونتقدّس بالمرور في تنّور آلامه وتجاربه المتّقد، سندعى كذلك لدخول العالم الجديد. سنقوم مع المسيح «فهو الذي يُبدِّل جسدنا الوضيع، فيجعله على صورة جسده المجيد» (في ٣: ٢١).

بما أنّ مجدًا كهذا ينتظر آلامنا وغالبًا ما نكون مقعدين بأجساد ضنيّة، فلم يبقَ سوى أن «تجعلوا من أنفسكم ذبيحةً حيّةً مقدّسةً مرضيّةً عند الله. فهذه هي عبادتكم الروحيّة» (رو ١٢: ١). لذلك لنقدّم أجسادنا المتعبة المنحوتة بالألم «أعضاء سلاح للخير في سبيل الله» (رو ٦: ١٣).

ما تجدر ملاحظته أنّ يسوع لم يجبن على الصليب. كلماته لا تعكس يأسًا أو هجرانًا (مز ١٥: ٣٤)؛ كان يصلّي (مز ٢١).

كلّما واجهتني مخاوف وأحزان ألتجئ إلى الربّ. هذه المواقف غالبًا ما واجهت أناس الكتاب المقدّس، وأحيانًا بقوّة. المزامير مثال حيّ على ذلك. عندما كان كاتب المزامير يعاني آلامًا جسديّةً شديدة كان يطلب عون الله، ليشفيه، لأنّه كان محطّما من الألم، الجسديّ والنفسيّ: «إلى متى يا ربّ تنساني وتحجب وجهك عنّي. إلى متى أحمل الغصّة في نفسي، والحسرة في قلبي نهارًا وليلاً... أنظر وأعنّي أيّها الربّ إلهي أنر عينيّ فلا أنام نومة الموت... للربّ أرفع نشيدي. لأنّه أحسن إليّ.» (مز ١٣: ١-٦). وكما صلّى الكاتب في المزمور السادس عندما كان طريدًا موجعًا ويائسًا: «لا تغضب يا ربّ في معاتبتي، ولا تحتدّ إذا أدّبتني. تحنّن يا ربّ لأنّي عليل. إشفني، فعظامي تبلى» (مز ٦: ٢-٤).

كتب القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ النزينزيّ إلى فيلاغريوس: «أنا موجع جدًّا ومتألّم في مرضي ومع ذلك أبتهج؛ لا لأنّي أتألّم بل باحتمالي الألم أعلّم الآخرين. بما أنّه يجب أن أتألّم، فأنا أنتفع باحتمالي هذا الألم، وأشكر الله دائمًا في الأحزان كما أفعل في أفراح الحياة»[18].

لا أحد يعلم مقدار ما تحمّله الرسول بولس، وما كتبه إلى أهل كورنثوس هو عبرة: أُصبت بشوكة في جسدي وهي كرسول من الشيطان يضربني لئلاّ أتكبّر. وصلّيت إلى الله ثلاث مرّات أن يأخذها عنّي، فقال لي «تكفيك نعمتي. في الضعف يظهر كمال قدرتي»، (٢كو ١٢: ٧-٩). وحدها رحمة الربّ تعين في أوقات المرارة هذه، إذ ينحتنا الألم. الألم الجسديّ الذي سبّب لبولس العذاب يتّخذ بعدًا آخر. هنا

[18] St. Gregory Nazianzen, Epistle 36: To Philagrius. The Early Church Fathers.

تُستعلن قدرة الله بكمالها عند مرض الإنسان، وكذلك في الحزن والألم وبمعونة الله ينجز المرء أعمالاً عظيمةً رائعة.

والقدّيس باسيليوس الكبير يكتب إلى صديقه العزيز نكتاريوس عند رقاد ابنه المفاجئ، معزّيًا وناصحًا: «سمعت عن خسارتك التي لا تحتمل وحزنت جدًّا. لا لزوم لأن أخبرك كيف تحسّرت وبكيت. فمن يمكنه أن يكون قاسي القلب إلى هذا الحدّ، لا إنسانيًّا، فاقد الإحساس لما حصل، أو يحزن قليلاً؟ لقد رحل وريث بيت نبيل، سند عائلة، أمل أب، نسل بررة، ربيب صلوات لا تحصى، في ريعان شبابه، انتزع من يدَي والده. هذه الأمور كافية لتكسر قلبًا قدّ من صخر وتجعله شفوقًا. في برهة، بحقد شيطان، بهجة المنزل وبريق الحياة أُزهِق وحياتنا انقلبت قصّة حزينة. إن أردنا البكاء والرثاء لما حدث فمدى العمر لن يكفي، وإن ناح معنا كلّ البشر فلن يماثل حزنهم حزننا. نعم، وحتّى لو كلّ الجداول صارت دموعًا فلن تبكي بليّتنا. وعندما تحوطنا المتاعب لتذكّرنا بأنّنا لسنا سوى بشر، ولتنصحنا، بما قد سمعناه ورأيناه فعلاً، بأنّ الحياة مفعمة بالبلايا المشابهة، وبأنّ أمثلة عذابات البشر ليست بقليلة. وقبل كلّ شيء، فإنّها وصيّة من الله بألاّ يحزن المؤمنون بالمسيح على الراقدين، لأنّ لنا رجاء بالقيامة، وثوابًا لصبرنا العظيم، فإنّ سيّد الحياة قد حفظ لنا أكاليل مجد عظيمة. أناشدك أن تؤدّي دور الرجل؛ الضربة قاصمة فاثبت، لا تنهر بثقل غمّك ولا تكن جبانًا. كن واثقًا تمامًا بأنّ أسباب ما رسمه الله لنا تتعدّانا، واقبل كلّ ما دبّره لنا العليم المحبّ مهما كان محزنًا لاحتماله. وحده يعلم كيف يعطي الأفضل لكلّ منّا ولماذا ظروف حياتنا مختلفة. هنالك بعض الأسباب غير المدركة للبشر مثل انتقال البعض بعيدًا عنّا بسرعة، والبعض

يعيش أطول ليتحمّل أعباء هذه الحياة المحزنة. علينا دائمًا أن نشغف بلطفه المحبّ وألاّ نتبرّم، متذكّرين كلمات المجاهد العظيم، أيّوب إذ رأى، في برهة، أولاده العشرة يسحقون وهم على المائدة، «الربّ أعطى والربّ أخذ». لم تتدمّر حياته إنّما تبدّلت إلى الأفضل. من نحبّ ليس تحت الثرى بل قائم في السماء. لننتظر قليلاً وسنجتمع معه ثانيةً. فراقنا لن يطول، ففي هذه الحياة كلّنا مرتحلون مسرعون إلى الملجأ ذاته. بينما يصل الواحد إلى راحته يلحقه آخر، وآخر يحثّ الخطى، لكنّهم في النهاية سيصلون إلى المكان ذاته. هو قد تخطّانا على هذه الطريق، لكنّنا سنسلك الطريق عينه حيث سنجتمع في النزل عينه. وحده الله بعملنا الصلاح يؤهّلنا إلى طهارته، إلى المنتهى بسبب عيشتنا البريئة نبلغ الراحة الممنوحة للأطفال في المسيح»[19].

في الوقت عينه يكتب القدّيس باسيليوس الكبير إلى امرأة نكتاريوس، الأمّ الثكلى، بما أنّ هذه العائلة كانت مقرّبة من قلبه: «لقد فقدت ابنًا، الذي كانت تدعوه الأمّهات سعيدًا وهو بعد حيّ، مصلّيات ليتشبّه به أبناؤهن، وعند موته انتحبن وكأنّ كلاً منهن قد وارت ابنها القبر. حياتنا ليست بلا عناية إلهيّة. وهذا ما تعلّمناه في الإنجيل، فلا يسقط عصفور على الأرض بدون مشيئة الآب. فكلّ ما يحدث إنّما بمشيئة الخالق. ومن يقاوم مشيئة الله؟ فلنقبل بما يصيبنا؛ لأنّنا إن لم نقبله لا نصلح ما حصل وندمّر أنفسنا. لا نتّهمنّ دينونة الله العادلة. نحن جاهلون جدًّا لنحمل على أحكامه الفائقة الوصف. الربّ يجرّب الآن محبّتك له. هذه فرصتك، بصبرك، تنالين نصيب الشهيد. أمّ المكّابيّين شهدت موت سبعة من أبنائها بدون أن

[19] St. Basil the Great. The 365 letters. Letter V: To Nectarius. The Early Church Fathers.

تتحسّر، وحتّى من دون أن تذرف دمعة. شكرت الله لتحرّرهم من وثاق الجسد بالنار والحديد والضربات الوحشيّة، ونالت مدحها من الله، وشهرةً بين الرجال. الخسارة عظيمة بنظري؛ وعظيمة أيضًا مكافأة الربّ للصابر. عندما أصبحت أمًّا ونظرت ابنك وشكرت الله، كنت تدركين بما أنّك فانية بأنّك ولدت فانيًا. فما الغريب في موت فانٍ؟ إنّنا نحزن لموته قبل الأوان. أمتأكّدون نحن بأن ليس هذا أوان موته؟ نحن لا نعرف أن نختار ما هو مناسب لنفوسنا، أو كيف نثبّت حدود حياة الإنسان. أنظروا إلى كلّ العالم حولكم حيث تعيشون؛ تذكّروا أنّ كلّ ما ترون فانٍ والكلّ خاضع للفساد. أرنوا إلى السماء، وهذه ستزول كذلك؛ تطلّعوا إلى الشمس، وحتّى هذه لن تبقى إلى الأبد. النجوم مجتمعةً، كلّ ما يعيش على اليابسة وفي البحار؛ كلّ ما هو حسن على الأرض، نعم، والأرض ذاتها، الكلّ سيضمحلّ؛ قليل بعد والكلّ سيزول. ليعطك هذا العرض بعض العزاء في محنتك. لا تقيسي خسارتك بذاتها، إن فعلت فلن تحتمليها؛ لكن إن أخذت بالحسبان كلّ المشاكل البشريّة فإنّك ستتعزّين. وفوق الكلّ أناشدك بأن تهتمي بزوجك. عزّي الآخرين. لا تصعّبي أموره بأن تبتعدي عنه بحزنك. الكلمات وحدها لا تعزّي. المطلوب الآن هو الصلاة؛ وأنا اتضرّع إلى الرب نفسه أن يلمُس قلبك بقدرته العجيبة، وينيره بالأفكار الصالحة لتكون مصدر تعزيتك»[٢٠].

غالبًا ما يشعر المحزون بأنّه لا يسيطر على مشاعره، وبأنّه دفن قطعةً من نفسه مع عزيز له ارتحل عن هذه الدنيا. الطفل الذي فقد أباه يشعر بعدم الأمان، وبأنّه لن يقدر على مواجهة الحياة من بعده. لا

[20] St. Basil the Great. The 365 letters. Letter VI: To the wife of Nectarius. The Early Church Fathers.

يعود يهتمّ بمباهج الحياة ولا يثير انتباهه شيء، لا المأكل ولا الحياة ذاتها. تلمّس وجه الميت وتقبيله يعزّي المحزون. قبر المحبوب يصبح مصدر قوّة لمن بقي وراءه. هذا ما يدعو إلى زيارة القبر مرارًا، وإلى تكريم الميت، والاهتمام بالقبر ذاته الذي يصبح كنزًا للمحزون.

تظهر العذراء مريم تعانق جسد ابنها الوحيد وربّها. تسرع سحرًا إلى قبر ربّها لتتعزّى وتخفّف ألمها حيث «كان جسد يسوع» (يو ٢٠: ١٢).

تكلّم آباء الكنيسة على الألم الذي يسبّبه غياب الأب الروحيّ. في الكنيسة أمثلة عديدة عن تألُّمها وبكائها على موتاها، لكنّ حزنها ليس بلا أمل بل بالإيمان والرجاء وتوقّع القيامة. في هذا الصدد يقول الذهبيّ الفم إنّ ألمًا كهذا يخلق أسوأ أنواع اليُتم، لأنّ الروح تفقد سندها الروحيّ. الآباء الكبار كتبوا عن سرّ الموت وعن الألم والحزن الذي يرافقه.

يؤكّد القدّيس أمبروسيوس أنّه تعزّى لمّا عاين جسد أخيه الفاقد النسمة ومسحة جمال ملائكيّ وغبطة ظاهرة عليه. هذا حقيقيّ وسأتكلّم عليه لاحقًا.

الأب العظيم الذهبيّ الفم يسمح بالحزن لكنّه ينصح بالتعقّل وكلام التعزية. كلامه لأهل أنطاكية معزٍّ جدًّا. «هذه الجروح تعزية لكلّ حزن؛ ولتعلموا بأنّها الحقيقة، افترضوا أنّ أحدهم خسر وحيدًا محبوبًا. أروه عشرة آلاف لؤلؤة ولن يتعزّى أو يخفّف من لوعته؛ لكن ذكّروه بأوجاع أيّوب، وواسوه بهذه الكلمات: «لِمَ تحزن أيّها الإنسان؟ فقد فقدت ابنًا واحدًا، أمّا ذاك المبارك، فبعدما نَكل أولاده جميعًا، وأُصيب بالمرض في لحمه، وافترش الروث عاريًا، متقيِّحًا في كلّ جسده، وجسده

يذوي؛ حتّى هذا العادل والبارّ والورع، الذي امتنع عن كلّ خطيئة، والله شاهد على فضيلته، لم يسلم من التجارب. من لا يطفئ أحزان المتألّم بهذه الكلمات ويزيل كربته؟ وبهذا تصير جروح البارّ أنفع من اللآلئ»[٢١].

وفي مقال آخر يقول القدّيس الذهبيّ الفم: «ألا تعلمون أنّ الخاطئ ميت مع أنّه حيّ؛ وأنّ السالكين بالبرّ وإن ماتوا فهم أحياء. وهذه ليست أقوالي. إنّها إعلان يسوع لمرثا، «من آمن بي وإن مات فسيحيا». هل عقيدتنا حقًّا أسطورة؟ إن كنت مسيحيًّا آمن بالمسيح؛ وإن كنت تؤمن بالمسيح أرني إيمانك بأعمالك. ولكن كيف تفعل ذلك؟ باحتقارك الموت، فبهذا تختلف عن الملحدين. هم يخافون الموت كثيرًا لأنّ لا رجاء لهم في القيامة. أمّا أنت المسافر إلى الأفضل وعندك الفرصة لتقلّب رأيك في رجاء المستقبل، ما سيكون عذرك، أنت المتأكّد من القيامة وفي الوقت عينه تخاف الموت كالذي لا يؤمن بها؟»[٢٢].

يشير الذهبيّ الفم إلى أنّ الموت ما هو إلاّ حادثة في حياة الإنسان، أمّا النفس فخالدة، والمسيحيّون يؤمنون بحياة ما بعد القبر. ويضيف أنّ الخوف من الموت هو فقط للذين لا رجاء لهم بما أنّهم يؤمنون، كالملحدين، بأنّ الموت هو النهاية، وهذا ما يعزّيهم لأنّهم يفتكرون بأنّهم يتجنّبون الدينونة. هذا الأب العظيم يشير إلى أنّ الأرثوذكسيّة تعتبر الموت رقادًا، نومًا، وليس موتًا في المعنى القاسي. «أتوسّل إليكم، ما هو الموت إذًا؟ إنّه مثل خلع عباءة. فالجسد عباءة للروح؛ وبعد

[21] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (1). The Early Church Fathers.

[22] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (6). The Early Church Fathers.

خلعها لفترة قصيرة بالموت، نستعيدها ثانيةً بأكثر بهاء. ما الموت على الأكثر؟ إنّه رحلة لأوان؛ نوم أطول من المعتاد! فإن خفت الموت ألن تخاف النوم أيضًا! فإن حزنت على الذين يموتون، بالأحرى احزن أيضًا على الذين ما يزالون يأكلون ويشربون، فالأمران طبيعيّان، فلا تحزنك الأمور الطبيعيّة، بالأحرى فليحزنك ما يصدر عنك من شرّ. فلا تحزن لمن على فراش الموت بل احزن لمن يحيا بالخطيئة»[23].

نحن نعلم جيّدًا أنّ الموت ما هو إلا رقاد وهو ضروري لهلاك جسم الخطيئة (١كو ٥: ٥) وأنّ «الزائل تبتلعه الحياة» (٢كو ٥: ٤) حتّى «يلبس هذا المائت ما لا يموت، ويلبس هذا الفاني ما لا يفنى» (١كو ١٥: ٥٣). وعلينا أن نقول بالنيابة عن العزيز الراقد بالربّ مع بولس «فالحياة عندي هي المسيح، والموت ربح» (في ١: ٢١)، وهو يتنعّم الآن بالنور الأبديّ والربيع السماويّ. فلنقبل إذًا آلامنا وألم الموت بجلد وحلاوة داخليّة، «ولنواظب على الصلاة» بثبات. سنستطيع ذلك عندما ندرك بعمق أنّ آلامنا كلّها تعمّدت ونالت معنى في آلام ربّنا على الصليب.

ولكي يحرّرنا الله من سلطة الموت اتّخذ جسدًا بشريًّا وعاش بيننا كواحد منّا، لا ليخلّص الملائكة (عب ٢: ١٦-١٨، رو ٦: ١-١١). لم يكن موته عرضيًّا ولا حدثًا عاديًّا. وبموته جرّد الخطيئة من كلّ قواها ومنحنا الحياة الأبديّة الحقّ بقيامته المحيية. بذلك أكّد لنا توقّع قيامتنا ورجاءنا. يوضح بولس الرسول ذلك بقوله في رسالته إلى أهل رومية: «فإن كنّا قد متنا مع المسيح، نؤمن بأنّنا سنحيا أيضًا معه. عالمين أنّ المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضًا. لا يسود عليه الموت

[23] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (11). The Early Church Fathers.

بعد. لأنّ الموت الّذي ماته قد ماته للخطيئة مرّة واحدة، والحياة الّتي يحياها فيحياها لله» (رو ٦: ٨-١٠). هذا هو الموت المثمر الذي قال المسيح عنه أيضًا: «الحقّ الحقّ أقول لكم: إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٤). شارك يسوع في كلّ حياتنا البشريّة وفي الموت أيضًا؛ «لكنّ أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمّلها. ونحن حسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومذلولاً» (إش ٥٣: ٤). شاركنا كلّ آلامنا وأحزاننا. قهر الموت وصار «القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥). عندما يجتاحنا الإحساس بأنّنا معزولون، مهجورون ووحيدون وسط الألم، تذكّروا بأنّ يسوع واجه هذا الإحساس ذاته على الصليب وأنّنا بالصليب وحده ومحبّة الربّ ننتصر فنصره صار نصرنا وقوّته قوّتنا. لا يعرض علينا المسيح طريقًا بديلاً من الألم والموت والشدّة، بل يجيزنا في وسطها، لنسير سيرة بطوليّة. هو لا يعطينا بديلاً إنّما مسيرًا معه مفتدى حقًّا[٢٤].

نصرة المسيح على الموت كانت جليّة بإحيائه الموتى (متّى ٩: ١٨-٢٥، لو ٧: ١٤، يو ١١)، ومن بعد قيامته امّحى فساد الموت (أع ٢: ٣١) وضمنّا أنّ «الحقّ الحقّ أقول لكم: إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو ٨: ٥١). لذلك فلا شيء نخافه ولا ما يحزننا إن آمنّا بالظفر على الخطيئة والموت، وسنحيا وإن متنا جسديًّا (يو ١١: ٢٥). كلّ طفل مسيحيّ يواجه الموت، بالمعموديّة، موت بالربّ (رو ١٤: ٧، في ١: ٢٠)، وهو موت مختلف، إنّه اتّحاد بالمسيح (رو ٦: ٤) ويصبح الموت مفهومًا مسيحيًّا. المسيحيّون هم للمسيح أحياء كانوا أو أمواتًا، وهو ملاذهم كما يقول كاتب المزامير: «في يوم ضيقي التمست الربّ.

[24] Callistus Ware, Bishop of Diocleia. The Inner Kingdom. Chapter 3.

يدي في اللّيل انبسطت ولم تخدر. أبت نفسي التعزية» (مز ٧٧: ٢) وكذلك «لأنّك كنت ملجأ لي، ومناصًا في يوم ضيقي» (مز ٥٩: ١٦).

وإذ أكمل اشتراكه في الحياة البشريّة، وفد الموت، ليدانينا أنّى كنا. في أقصى حالات يأسنا يجب أن نعلم أنّه إلى جانبنا. هذا صحيح لأنّه عانى اليأس. في وجعنا هو أيضًا إلى جانبنا، لأنّه عانى الوجع. وإذ نعاني الهجران يجب أن نتذكّر أنّ ما من أحد عانى الهجران مثله وهو على الصليب. مهما انحدرنا وسقطنا فهو يسندنا من الأسفل بما أنّه انحدر إلى الجحيم. وحتّى إن متنا في فوضى الموت فالمسيح بانتظارنا. لهذا موت المسيح عزاء المؤمنين ورجاؤهم. يعلّمنا المسيح الصبر وكيف نرتقي به لأنّه سمةُ القويّ لا الضعيف.

بالحقيقة «موت الخاطئ شرٌّ». وهو كموت الغنيّ المحتقر لعازر. فعندما انتهت طبيعيًّا حياته بالموت، في منزله وعلى فراشه يحوطه أقرباؤه، عانى عذابًا شديدًا من بعد رحيله إلى العالم الآخر؛ ولم تتسنّ له أيّة راحة، من بين كلّ الملذّات التي تمتّع بها في حياته! أمّا وضع لعازر فكان مختلفًا جدًّا؛ فبينما كان مطروحًا على باب الغنيّ والكلاب تلحس قروحه، عاش موتًا قاسيًا، أليس الموت جوعًا أكثر ألمًا من الموت؟، لكنّه في رحيله تنعّم بالبركات الأبديّة، راتعًا في أحضان إبراهيم![25]. بالمعنى عينه يخبرنا سفر حكمة سليمان عن موت المؤمنين؛ «أمّا نفوس الأتقياء فهي بيد الله فلا يمسّها عذاب. لكنّ الجهلاء يعتقدون خطأً أنّ الأتقياء إذا ماتوا يعانون الموت في شقاء عظيم، وأنّ رحيلهم عنّا نكبة، بينما هم في واقع الحال في سلام. ومع أنّهم في نظر الناس يعاقبون، فرجاؤهم أكيد أنّهم خالدون. وإذا أصابهم التأديب، فهم يجازون خيرًا

[25] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (8). The Early Church Fathers.

كبيرًا، لأنّ الله امتحنهم فوجدهم أهلاً له. محّصهم كالذهب في النار، وقبلهم كما يقبل المحرقات» (حك ٣: ١-٦).

من المهمّ معرفة أنّ اتّحادنا بموت المسيح لا يعطينا رجاء الخلود في الزمن الحاضر فقط، إنّما يؤكّد لنا ويعطينا الثقة بأنّ «وإذا كان روح الله الذي أقام يسوع من بين الأموات يسكن فيكم، فالذي أقام يسوع المسيح من بين الأموات يبعث الحياة في أجسادكم الفانية بروحه الذي يسكن فيكم» (رو ٨: ١١). في تلك اللحظة سنتحوّل إلى عالم آخر، إلى عالم الحياة الحقيقيّة حيث «لا يبقى موت» (رؤ ٢١: ٤).

في العهد القديم الله يواسي الحزانى في حالات الموت، كما عند أيّ ألم آخر. يظهر تارةً كراع (إش ٤٠: ١١، مز ٢٣: ٤) ويُبدي تارةً العطف الأبويّ (لو ١٥: ١١-٣٢)، أو كزوج غيور (إش ٤٩: ١٤). أمّا في العهد الجديد، فيسوع هو التعزية والراحة بمعجزاته وإقامته الموتى. ينجد المؤمنين بهذه التعزية المتحدّرة من معين لا ينضب، الربّ الناهض من بين الأموات. في هذا الصدد يكتب بولس إلى أهل كورنثوس قائلاً: «مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كلّ تعزية، الذي يعزّينا في كلّ ضيقنا، حتّى نستطيع أن نعزّي الذين هم في كلّ ضيقة بالتعزية التي نتعزّى نحن بها من الله» (٢كو ١: ٣-٤). كما يحثّنا على تعزية المتفجّعين على أحبّائهم بالقول: «لذلك عزّوا بعضكم بعضًا بهذا الكلام» (١تس ٤: ١٨) ويؤكّد أنّ الموت كالزرع «يُزرع جسمًا حيوانيًّا ويُقام جسمًا روحانيًّا. يوجد جسم حيوانيّ ويوجد جسم روحانيّ» (١كو ١٥: ٤٤). فإن لم تكن قيامةٌ فإيماننا باطل.

في الكنيسة فقط توجد الحياة. يجب أن نعتدل في حزننا على أحبّائنا، أن نلطّفه، أن نهدّئه وأن نحوّله إلى نضوج داخليّ وإثمار. في

الليتورجيا الإلهيّة نكون في اليوم الثامن، يوم الربّ، أوّل الأسبوع. فبالنسبة إلى الكنيسة الأسبوع هو دائرة لا بدء ولا نهاية لها، تمامًا كالمسيح الذي لا بدء له ولا نهاية. تاليًا، فاليوم الأوّل هو أيضًا الثامن. لذلك فنحن نقيم الليتورجيا في اليوم الثامن من الأسبوع وهو تاليًا خارج الزمن لأن اليوم الثامن لا وجود له نحن نخرج من الزمن لنلاقي من هو أيضًا خارج الزمن. و«الكنيسة المجاهدة» تجتمع مع «الكنيسة الظافرة» حين يضع الكاهن أجزاء التقدمات عن الأحياء والراقدين في كومة واحدة بالقرب من الحمل على صينيّة التقدمة. هنا، في الكنيسة، وحول الحمل الذبيح، خلال الليتورجيا نجتمع بأحبّائنا الراقدين «على رجاء القيامة والحياة الأبديّة». في الحقيقة هنا مكان النائحين وليس في البيت. هنا في الكنيسة مكان لقاء الأحياء والراقدين معًا مع المسيح، بكلام آخر نحن نحيا الأبديّة في كامل حقيقتها وملئها قبل تحقّقها. عندها نتذوّق، ليتورجيًّا وإفخارستيًّا، هذه السعادة اللامتناهية التي تلطّف ألم الموت وتخفّفه، والتي غالبًا ما تعطينا ثمارًا روحيّة، أبديّة ونافعة.

يقول القدّيس يوحنّا السلّميّ إنّ ألم الموت تحديدًا «مسمار ذهبيّ في روح تحرّرت من كلّ الربط والوثق، مدقوق على باب القلب بالألم المقدّس، ليحرس القلب»[٢٦].

[26] St. John Climacus. Joy Making Mourning; Sermon VII (1)

«ألقِ على الرب همك فهو يعولك، لا يدع الصدّيق يتزعزع إلى الأبد»
(مز٥٥: ٢٢)

التفجّع والحزن

كيف يمكننا أن نحسّ بالألم النفسيّ الذي يجتاح أحد الزوجين حين موت زوجه؟ كيف نعزّي والدين فقدا مولودهما وأن نشعر بمقدار حزنهما؟ «توكّل على الربّ بكلّ قلبك» (أم ٣: ٥) وكذلك «لا تضطرب قلوبكم» (يو ١٤: ١) لأنّه «يشفي المنكسري القلوب، ويجبر كسرهم» (مز ١٤٧: ٣)؛ ومسيحه «سيبشّر المساكين، ويعصب منكسري القلب» (إش ٦١: ١).

في التعليق على رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي (٤: ١٣) يقول الذهبيّ الفم: «دعونا أوّلاً نتكلّم على ما تقدّم، «ثمّ لا أريد أن تجهلوا أيّها الإخوة من جهة الراقدين، كيلا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم». لاحظوا كيف يعاملهم هنا برفق. فهو لا يقول «ألا تفهمون؟» أو كما خاطب أهل كورنثوس قائلاً «أيّها الأغبياء» عالمين بأنّ ثمّة قيامة، أفتحزنون، كالوثنيّين؛ لكنّه يخاطبهم بكلّ رفق محترمًا فضائلهم الأخرى. ولم يقل «ما يختصّ بالأموات»، بل «بالراقدين»، ومنذ البدء يعزّيهم. يقول، «لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم». لذلك لا تعذّبوا أنفسكم من أجل الراقدين كما يفعل الذين لا رجاء لهم. فالذين لا يعلمون عن القيامة ويظنّون أنّ هذا الموت إنّما هو النهاية يعذّبون أنفسهم بطبيعة الحال، وينوحون ويحزنون بإفراط على الذين فقدوهم. أمّا أنتم يا من تنتظرون القيامة، لأيّ أمر تتفجّعون؟ فالتفجّع إذًا هو للذين فقدوا الرجاء. اسمعن أيّتها النساء المولعات بالندب والعويل، ولا تطقن احتمال الحزن فتتصرّفن كالوثنيّات. فإن

كان الحزن على الراحلين هو دور الوثنيّين، فمن دوره إذًا في أن يلطم نفسه، ويجرّح خدّيه؟ علامَ تتفجعنّ إن كنتنّ تؤمنّ بأنّه سيقوم ثانية، وبأنّه لم يبلَ، وبأنّ الأمر لا يتعدّى غفوةً وهجوعًا؟ تقلن بأنّ ذلك إنّما بسبب مجتمعه، حرمةٍ له، لرعايته مصالحنا، وجميع خدماته الأخرى. إذًا فعندما تفقدين طفلاً قبل أوانه، من لم ينضج بعد ليعمل أيّ عمل ممّا ذكرت، فعلى أيّ أساس تتفجّعين؟ علامَ تتذكّرينه؟ تقولين لأنّه كان رجائي، وكنت أتوقّع منه إعالتي. لهذه الأسباب أفتقد زوجي أو ابني، لهذا أنوح وأنتحب، لا لجحدي القيامة بل لأنّي عدمت الإعالة، لخسراني حاميّ، رفيقِ دربي، مشاركي في كلّ شيء ومعزّيّ. لهذا أندب. أعلم أنّه سيقوم ثانيةً لكنّي لا أقوى على احتمال الفراق. مصاعب جمّة تجتاحني. كُشفتُ لكلّ مبغضيّ. خدّامي من خافوني سابقًا احتقروني الآن وقسوا عليّ. المنتفعون منه نسوا الآن إحساناته؛ وكلّ من أساء زوجي معاملته يصبّ غضبه عليّ الآن انتقامًا. هذه الأمور لا تسمح لي باحتمال ترمّلي. ولهذه الأسباب أعذّب نفسي وأنتحب... كيف نعزّيهنّ؟ ماذا نقول لهنّ؟ كيف نطرد حزنهنّ؟ سأعمل أوّلاً على اتّهامهنّ بأنّ تفجّعهنّ ليس ناتجًا ممّا ذكرن بل من انفعالات لا منطقيّة. فإن كنت تحزنين لهذه الأسباب، فعليك الحزن على الراحل باستمرار. أمّا أن تنسيه بعد سنة وكأنّه لم يكن، فأنت لا تتفجّعين على الراحل ولا على حمايته لك. لكنّك لا تحتملين الفراق ولا الانسلاخ عن مجتمعك؟ وما تقوله اللواتي يتزوّجن ثانيةً؟ إنّه لحقّ! إنّهم الأزواج السابقون الذين يشتقن إليهم. فلا نوجّه حديثنا إليهنّ من بعد، بل إلى اللواتي يحافظن على بعض عاطفة للزوج الراحل. وعلامَ تندبين طفلك؟ ولمَ زوجك؟ عن الأوّل تقولين بأنّك لم تهنأي به، وعن الآخر

أنك توقّعت العيش معه لفترة أطول. وعن هذا بعينه أسأل أيّة نقيصة عن الإيمان تبحث، بالافتراض أنّ زوجك أو ابنك يضمن سلامتك وليس الله! فكيف تُغضبين الله؟ بالطبع سيأخذهم لئلاّ تتعلّق نفسك بهم وتنصرف آمالك عنه. فالله غيور ويريد أن نحبّه أكثر من أيّ شيء: وذلك لأنّه يحبّنا إلى أقصى حدّ. فأنت تعلمين أنّ هذه هي حالة الولهان. المحبّون بطبعهم غيورون بمبالغة، ويفضّلون فقد حياتهم على أن يتخطّاهم بالكرامة أيّ من أحبّائهم الأنداد. ولهذا السبب أيضًا أخذهم الله بسبب هذا الكلام... ما من أحد أناس العهد القديم أثار غضب الله، حُبًّا بزوجة أو زوج أو لحماية ابن. أمّا الآن وبسبب انحطاطنا وسقوطنا الكبير أصبحنا، نحن الرجال نحبّ نساءنا أكثر من الله، ونحن النساء نوقّر رجالنا أكثر ممّا نوقّر الله. لهذا السبب يجتذبنا رغمًا عنّا إلى محبّته. لا تحبّي زوجك أكثر من الله، وإذا توفّي زوجك فلا تتأثّري بهذه الوفاة. لِمَ؟ لأنّ لك حاميًا خالدًا يحبّك أفضل. إن كنت تحبّين الله أكثر فلا تنوحي: فمن تحبّينه أكثر خالد ولا يجعلك تتألّمين عند فقد من تحبّينه أقلّ. إن كنت تحبّين الله أكثر من زوجك، لن تتوجّعي حتّى لو أخذه قبلك. ولهذا السبب عينه لم يتألّم أيّوب المبارك كثيرًا إذ جاءه نعي أولاده جميعًا في وقت واحد لأنّه أحبّ الله أكثر ممّا أحبّهم. وبما أنّ من أحبّه أيّوب حيٌّ لم تعذّبه تلك الأحداث... لا شيء يمكنه أن يؤلمنا إن صقَلَتنا الحكمة»[27].

من الضروريّ لنا، نحن المسيحيّين، أن نؤمن «بأنّ سيرتنا نحن هي في السماوات، التي منها أيضًا ننتظر مخلّصًا هو الربّ يسوع المسيح» (في ٣: ٢٠) وبأنّنا عابرون على هذه الأرض، لكن علينا أن

[27] St. John Chrysostom, Homilies on first Thessalonians; Homily VI. The Early Church Fathers.

ننشد المدينة السماويّة «ليس لنا هنا مدينة باقية، لكنّنا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٥٤). لذلك فبالموت نتوجّه نحو بلدة الأحياء «حيث لا حزن ولا دموع ولا ألم ولا وجع ولا أنين». لأنّنا سنكون مع ربّ الحياة والموت، الذي به قمّة الفرح والهدوء والسلام. من هذا المنطلق يواجه المؤمن الموت كمرشد إلى حياة روحيّة فضلى، كطريق يقود إلى بلدة الأحياء، إلى الحياة الحقيقيّة.

يعلّق الذهبيّ الفم على خبرة القدّيس بولس الذي قال «اختُطفت إلى السماء الثالثة؛ وعاينت المجد الذي لا يوصف؛ (٢كو ١٢: ٢) وشاهدت القصور المتلألئة، فعلمت من أيّة سعادة محروم بينما أتوانى هنا، فلذلك أئنّ»، قائلاً: «افترضوا أنّكم أدخلتم إلى قاعات ملكيّة تتألّق بحيطانها الذهبيّة وكلّ ما فيها فخم بهيّ؛ ومن ثمّ أعدتم إلى كوخ فقير ووعدتم بأنّكم ستعودون بعد وقت قصير إلى تلك القصور وستسكنونها إلى الأبد، أفلا تضنون توقًا، وينفد صبركم، خلال تلك المدّة؟ فافتكروا إذًا بالسماء والأرض وتأوّهوا مع بولس، لا على الموت بل بسبب الحياة الحاضرة»[٢٨].

بالمعنى عينه يتكلّم القدّيس غريغوريوس النيصصيّ، أب عظيم آخر من الكنيسة، قائلاً: «سنبحث في قول العظيم بولس: «ثمّ لا أريد أن تجهلوا أيّها الإخوة من جهة الراقدين، كيلا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم» (١تس ٤: ١٣). إن تعلّمنا من دراستنا ما يختصّ بالراقدين، والذين بهم تفكّرنا، فعلينا ألاّ نقبل الحزن المتأتّي من الأفكار التقليديّة السائدة عند البشر، أمّا إن كان من الضروريّ أن نحزن فلنفضّل الحزن الفاضل الجدير بالثناء... لذلك بما أنّ هناك حزنًا

[28] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily V (5). The Early Church Fathers.

مخلِّصًا، كما تدلّ الكلمة، فاسمعوا إذًا يا من تستسلمون للحزن؛ نحن، الكنيسة، لا نُحرّم الحزن بل ننصحكم بإبدال الحزن الرنّان بالحزن الصالح. الدمع الذي بلا هدف وبلا جدوى يسبّب الإدانة لمن يستغني عن شيء ثمين. وكما يقول الرسول، لا تحزنوا بحسب الحزن العالميّ الذي يمهِّد للموت، بل بحسب الحزن الإلهيّ الذي يؤسِّس لخلاص النفس. فكلّ دمعة تُذرف بلا معنى لا تفيد الراقد؛ بالإضافة إلى أنّها تصبح سببًا لانتقاد من يُسيء استعمال شيء مفيد. خالق كلّ الأشياء بحكمة سمح بحالة الحزن هذه أن تولد في الطبيعة الإنسانيّة حتّى تطهِّر الشرّ الذي استولى على البشر، وليصبح سلاحًا للذين يرجون نوال الخير. ربّما سيدين السيّد الذي ذرف دموعه سدى وعبثًا، بحسب كلمة البشارة، كخادم غير أمين بدّد وأهدر الكنز المؤتمن عليه. كلّ ما يُصنع للخير يُسجّل كإرث ثمين؛ «ثمّ لا أريد أن تجهلوا أيّها الإخوة من جهة الراقدين» أي ما تعلّمناه، وكلّ ما سيكشفه الروح القدس للكاملين «كيلا تحزنوا كالباقين الّذين لا رجاء لهم» (١تس ٤: ١٣). وحدهم غير المؤمنين يحصرون رجاءهم في الحياة الحاضرة فقط ولذلك يشكّل الموت فاجعةً لهم، لأنّ لا رجاء لهم بما نؤمن به. أمّا نحن المؤمنين بالخالق العظيم، ربّ كلّ الخليقة، الذي لأجل هذا مات وقام، ليؤكّد كلامه بالقيامة ولنؤمن بها، ليصير لنا يقين الرجاء بالخيرات الأبديّة. فإن كان هذا الرجاء فينا فلن يكون هنالك مكان للحزن في نفوسنا على «الراقدين». فربّنا وإلهنا يسوع المسيح الذي يحضّ المتواضعين، سيحضّ أيضًا قلوبنا ويعيننا بمحبّته برحمته»[٢٩].

لا يمنعنا الذهبيّ الفم من البكاء، بل يحذّرنا من الأعمال غير

[29] St. Gregory of Nyssa. Kounavi, Georgia. The pain. Chapter 2, The pain of death. Translated by Rev. Constantine J. Andrews, STM. Apostoliki Diakonia Press.

اللائقة مسيحيًّا. «لنبكِ موت أحبّائنا، أنا لا أمنعكم. لنبكهم. لكن لا بطريقة نابية وغير جديرة بالمسيحيّين. لنبكهم بدون تجريح أيدينا أو «شدّ شعر رؤوسنا»، بدون أن تنهمر دموعنا على وجهنا بل بسكون من أعماق نفسنا. هذا ينفعنا كثيرًا... ولنحسب كلّ الأشياء الحاضرة بلا قيمة ولا تختلف عن الخيالات والرؤى»[30].

من الطبيعيّ أن نجد اختلافًا في آراء الآباء ووجهات نظرهم بما خصّ مقدار الألم. كلّهم يجمع على أنّ موت الأحبّاء يحزن، ويجمعون أيضًا على الاعتدال في الحزن مع حفظ الإيمان والصبر. الاعتدال والصبر يتولّدان من الإيمان بالربّ المصلوب والناهض من بين الأموات. وتاليًا لا يقودنا الحزن والألم إلى اليأس. من المهمّ جدًّا تجنّب المغالاة التي تقود إلى الإلحاد واليأس. هذا ليس من المسيحيّة، لأنّ التعزية والعون والدعم والفرج وحلّ كلّ مشاكلنا، تأتي عندما نكون بقرب مخلّصنا. يسوع نفسه قال: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم» (متّى ١١: ٢٨). عندما ننوء تحت الأحمال الثقيلة والألم، ينعشنا الإيمان بالله إذ نلتجئ إليه طواعيّةً لأنّه يحترم إرادتنا ولا يُلحّ على أحد.

في الرسالة إلى بلخيرية عن سبب موتنا، يتكلّم القدّيس غريغوريوس النيصصيّ على ألم أيّوب وحزنه وعذابه، ويقدّم لنا في الوقت ذاته سفرًا بديعًا ملؤه الحكمة والتعزية والرجاء: 'هذا الرجل المبارك أيّوب، تفكّر في الطبيعة والكائنات وعلّة وجودها. الربّ أعطى والربّ أخذ. الله هو الخالق والانحلال هو إلى الله. لله السلطة على العطاء والأخذ. بما أنّه صالح يريد الخير، وبحكمته يعلم ما ينفعنا،

[30] St. John Chrysostom, Sermon XXX: On Death. The Early Church Fathers.

يعمل الخير، تبارك اسمه. أتدركون عبقريّة هذا البطل، أيّوب؟ فقد حوّل زمن الحزن الكبير إلى تفكير بحكمة الخلق. وعلم أنّ الحياة الحقيقيّة هي في الرجاء، وأنّ الحياة الحاضرة كبذرة الحياة المستقبلة. والأمور المستقبلة المتوقّعة تختلف عن الحاضرة بمقدار اختلاف السنبلة عن القمحة التي نمت منها. الحياة الحاضرة تماثل القمحة أمّا المستقبلة فتماثل جمال السنبلة. هذا الجسد الفاني سيلبس الهلاك أمّا الخالدون فبالخلود يتسربلون. فالموت إذًا ليس سوى مطهّر للإثم. وبما أنّ الله قد خلقنا آنية صلاح، إلا أنّ عدوّ نفوسنا، إبليس، قد ملأها إثمًا بالخديعة فما عادت تسع الصلاح. لذلك ولئلاّ يخلد الشرّ الذي زرعه فينا إبليس، سمح صلاح العناية الإلهيّة بأن تنحلّ أجسادنا بالموت لبعض من الوقت، وإذ يتطهّر الإثم تُخلق طبيعتنا البشريّة من جديد بدون الإثم وتستعاد الحياة. هذه هي القيامة، استرجاع طبيعتنا إلى بهائها الأصليّ. لا يمكن استرجاع طبيعتنا وكمالها بدون قيامة. ولا قيامة إن لم يسبقها موت. تاليًا فالموت أمر جيّد لأنّه بدء تحوّلنا إلى الكمال بما أنّ القيامة تتبعه. لذلك يا إخوتي، فلا نحزن على الراقدين حزنًا يقاسيه فقط من هم بدون رجاء القيامة. المسيح رجاؤنا وله المجد والقدرة والإكرام والتسبيح مدى الدهور. آمين»[31].

لا ينحصر الحزن بالمدنيّين أي العلمانيّين، فالإكليريكيّون يقاسونه أيضًا. يعبّر القدّيس غريغوريوس عن حزنه العميق على موت القدّيس باسيليوس قائلاً: «عند رقاد باسيليوس الورع... التهب

[31] Kounavi, Georgia. The pain. Chapter 2, The pain of death. Translated by Rev. Constantine J. Andrews, STM. Apostoliki Diakonia Press.

قلبي في داخلي على فقده، وحزنت جدًّا أيضًا على خسارة الكنيسة»[٣٢].

أرى من المناسب أن أذكر أيضًا آلام والدة الإله. كأمّ كابدت آلام الفقد عندما علّق ابنها على الصليب، ولا شكّ في أنّها ناحت عند دفنه وقد انفطر قلبها البتوليّ الطاهر. العهد الجديد لا يذكر شيئًا عن هذا، أمّا الإنجيليّ لوقا فيورد نبوءة سمعان الشيخ عند تقديم الربّ إلى الهيكل: «وسيجوز سيف في نفسك أيضًا». جُلّ ما ذكر هو أنّها كانت تنتحب وقد جلست قبالة القبر، (متّى ٢٧: ٦١، مر ١٥: ٤٧)؛ منتظرةً قيامته. في صلاة الخميس العظيم نقرأ: «إنّ النعجة مريم لمّا أبصرت حملها مساقًا إلى الذبح تبعته مع نساء آخرات مضطربةً وباكية،...»[٣٣]. ويوم السبت العظيم نرتّل، «لا تنوحي عليَّ يا أميّ إذا ما شاهدتني في قبر، أنا ابنك... لأنّي سأقوم وأتمجّد...»[٣٤]. وفي كتاب المعزّي أيضًا تراتيل كثيرة عن انتحاب الفائقة القداسة والدة الأله وعن بكائها وحزنها.

علينا أن نتذكّر دائمًا أنّ بكاء والدة الإله وحزنها كان معتدلاً ومتعقّلاً.

أريد أن أذكر أيضًا أنّ الحزن والأسى على موت أحبّائنا يُساعدنا على إدراك موتنا المحتوم وقبوله، وهو الذي يجعلنا ننمو وننضج روحيًّا ونتحوّل نحو المحبّة والتسامح. بالإضافة إلى ذلك فحزننا وألمنا يساعدانا على مشاطرة الآخرين أحزانهم، وكأنّها أحزاننا فنصبح «مشاركي آلام» الآخرين.

---

[32] St. Gregory of Nyssa. Against Eunomius. Introductory Letters. Gregory to his brother Peter, Bishop of Sebasteia. Translated by the Rev. William Moore, M.A., Rector of Appleton, Late Fellow of Magdalen College, Oxford. The Early Church Fathers.

[٣٣] خدمة أناجيل آلام الخميس العظيم، البيت، بعد الإنجيل الثامن. طريق الأمان لأبناء الإيمان.

[٣٤] خدمة جنّاز المسيح، الأودية التاسعة. طريق الأمان لأبناء الإيمان.

علينا ألاّ نحاول تعزية أصدقائنا عند صدمة فراق أحبّائهم. فأكثر ما يحتاجون إليه عندها هو وجودنا بقربهم. اعتقاد المحزون الأوّليّ والخاطئ هو: «لن أتخطّى هذا الحزن». هذا خطأ! لن تكون الإنسان نفسه بعدما حصل، لكنّ الجرح سيشفى يومًا. «عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنّم» (مز ٣٠: ٥).

تفكير خاطئ آخر هو «الوقت كفيل بالشفاء». الحقيقة أنّ الوقت وحده لا يشفي الحزن ما لم يملأه الإيمان، الصلاة، العائلة، الأصدقاء والقبول الصادق والتعبير عن مشاعرنا.

الجوّ المساعد على اجتياز الحزن يتضمّن المثلّث التالي: الإيمان، العائلة والأصدقاء. الإيمان يتضمّن الكنيسة التي هي عائلة الله وعناية الإخوة والأخوات في المسيح الذين يحملون أثقال بعضهم البعض. فريق دعم المحزونين في الرعيّة هو تعبير ممتاز على مدّ يد المساعدة لشفاء الله لشعبه من أحزانهم. وهذا عينه ما ساعد أيوب في الأيّام الأولى من محنته عندما زاره أصحابه، «فلمّا سمع أصحاب أيّوب الثلاثة بكلّ الشرّ الذي أتى عليه، جاؤوا كلّ واحد من مكانه... وقعدوا معه على الأرض سبعة أيّام وسبع ليال، ولم يكلّمه أحد بكلمة، لأنّهم رأوا أنّ كآبته كانت عظيمة جدًّا» (أيّ ٢: ١١-١٣).

«لأنّنا بالإيمان نسلك لا بالعيان»

(٢كو ٥: ٧)

الإيمان

حكمة الإنسان وقوّته لا تعزية فيهما، وحده الإيمان بالمسيح يقودنا إلى حسن التمييز غير البشريّ. في هذا الصدد يكتب القدّيس بولس إلى أهل كورنثوس: «وأنا كنت عندكم في ضعف، وخوف، ورعدة كثيرة. وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانيّة المقنع، بل ببرهان الروح والقوّة، كيلا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوّة الله» (١كو ٢: ٣-٥).

وكما تخرق البذرة قشرتها لتكشف قلبها للشمس لتثمر، هكذا فلنخرق قشرة أنانيّتنا وقلّة إيماننا ولندفء قلبنا عندما نسكن بالألم قرب الشمس الفريد، المسيح ربّنا. السلام الذي يعطيناه ليس كالسلام البشريّ كما قال لتلاميذه من بعد قيامته: «سلامًا أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» (يو ١٤: ٢٧). فقط في الكنيسة ينمو الإيمان ويخفّ الألم حيث يتعزّى المؤمنون «ويسمعوا صوته» ليتقوّى إيمانهم ويخلصوا. من الضروريّ جدًّا، في ألمنا، أن نشعر بوجود الله بقربنا، في داخلنا. أن نشعر بوجوده بكلّ بساطة بدون أن نفتّش. يقول سفر المزامير: «ليستجب لك الربّ في يوم الضيق. ليرفعك اسم إله يعقوب» (مز ٢٠: ١)؛ وأيضًا «عليك ألقيت من الرّحم. من بطن أمّي أنت إلهي. لا تتباعد عنّي، لأنّ الضّيق قريبٌ، لأنّه لا معين... صار قلبي كالشمع. قد ذاب في وسط أمعائي... ثقبوا يديّ ورجليّ... أمّا أنت يا ربّ، فلا تبعد. يا قوّتي، أسرع إلى نصرتي. أنقذ من السيف نفسي. من يد

الكلب وحيدتي. خلّصني من فم الأسد، ومن قرون بقر الوحش!... لأنّه لم يحتقر ولم يرذل مسكنة المسكين، ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع» (مز ٢٢: ١٠-٢٤). بالإيمان نسمع صوته في داخلنا ممّا يشفينا، بالإيمان تصير كلمة الله حقيقةً، بما أنّنا في الكنيسة جسده، وهكذا نتحرّك ونحيا بالمسيح. كلمات الله، تذكّرنا بكلامه الشافي والمحيي وبأن نحفظها في قلوبنا لا في عقولنا: «يا ابني، أصغ إلى كلامي. أمل أذنك إلى أقوالي. لا تبرح عن عينيك. احفظها في وسط قلبك. لأنّها هي حياة للذين يجدونها، ودواء لكلّ الجسد» (أم ٤: ٢٠-٢٢).

الإيمان ليس محصّلة الخبرة. بالأحرى هو «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عب ١١: ١). مدح يسوع الأعمى في أريحا وكافأ إيمانه «فقال له يسوع: «أبصر. إيمانك قد شفاك» (لو ١٨: ٤٢) وكذلك ابنة الكنعانيّة «حينئذ أجاب يسوع وقال لها: «يا امرأة، عظيم إيمانك! ليكنِ لك كما تريدين». فشفيت ابنتها من تلك السّاعة» (متّى ١٥: ٢٨) لم طلبوا إليه الشفاء. أحيانًا لا نتصرّف بحسب إيماننا. نفضّل أن ننالَ أوّلاً أو نُعاين لنؤمن، لكنّ الإيمان ينتفي حين ننال ما نطلبه. الإيمان هو الثقة بما يُرجى، فعندنا نعاين يصبح الأمرِ ملموسًا ويخرج عن دائرة تعريف الإيمان. يجب ألاّ ننتظر لنتعزّى أوّلاً لنؤمن بكلامه وسلطانه. علينا أن نستمع لمن قبلناه في داخلنا ولما علّمنا لا لما يفتكر به الناس. يجب أن نفعّل كلمة الله في قلوبنا لا في عقولنا أو حواسّنا. عندما يقول لنا الله إنّ كلامه تأكيد «الأمور التي لا تُرى»، علينا أن نؤمن لا أن ننتظر لنتأكد من ذلك. كلامه عهد، وعد، وهو أمين لا يكذب.

خلط الإيمان مع العقلانيّة في مرحلة الألم تفتيشًا عن تعليلات سيخيّب أملنا، لأنّ الله يعمل بطرائق مختلفة عن طرائقنا. حواسّنا

أرضيّةٌ معقولة بينما بالإيمان نسلك بالروح وحينها نتعزّى «لأنّ الله لم يعطنا روح الفشل، بل روح القوّة والمحبّة والنصح» (٢تي ١: ٧). لنتّجه نحو الربّ في أوقات الضيق بكلّ قلوبنا، ولنقبله في داخلنا ربًّا لحياتنا لنحوز «مقياس الإيمان» الذي وهبنا إيّاه. علينا الاشتراك بفعاليّة في الأسرار في أوان آلامنا، وذلك للاشتراك مع الربّ لننال «مقياس الإيمان» ذاك، لنناله. بمقياس الإيمان الشخصيّ هذا، فإنّ الربّ لا يظهر نفسه بالطريقة ذاتها لكلّ منّا.

القدّيس كيرلّس الأورشليميّ يكتب كيف يخلّص إيماننا الآخرين: «نعم، للإيمان قوة عظيمة، فلا يخلص المؤمن وحده، فالبعض خلصوا بإيمان آخرين. مخلّع كفرناحوم لم يكن مؤمنًا، إنّما الذين دلّوه داخلاً كانوا مؤمنين، لأنّ نفس ذلك المخلّع شاطرت مرضه الجسديّ. ولا تحسبوا أنّني أتّهمه جزافًا: فالإنجيل يقول، إذ رأى يسوع إيمانهم، لا إيمانه، قال له، انهض! حاملوه آمنوا والمخلّع تمتّع ببركة الشفاء... بتوبتك يتعطّف عليك: من جهّتك قل بفكر صادق، أؤمن يا ربّ فأعن عدم إيماني. أمّا إن كنت تظنّ أنّك مؤمن حقًّا وليس لك ملء الإيمان فردّد كما ردّد الرسل، يا ربّ أعن قلّة إيماننا. بعض الإيمان يكون من عندك أمّا القسم الأكبر فتناله من الله»[٣٥].

بالإيمان فقط يسلك المعذّب في النور الحقّ. بالإيمان ندرك أنّ محبّة الله لنا تريح ألمنا، «فما هو «غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله» (لو ١٨: ٢٧).

يسوع في الجسد، آمن بحكمة الله ومشيئته، فاعتلى الصليب مؤمنًا بقيامته. في هذا الصدد كتب الرسول بولس مشدّدًا إيماننا في

[35] St. Cyril of Alexandria. Lecture V. Of Faith. (Parts 8 and 9). The Early Church Fathers.

الضيقات: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهينًا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢: ٢).

في الوحدة التي حقّقها الصليب والابن الناهض من بين الأموات، يمكن للإنسان أن يختار ويقبل الألم بالإيمان. وبذلك يغلب الشرّ بما أنّ الألم والموت هما من إبليس. ولا شرّير يقدر على محو سرّ الإنسان الأصليّ، لا شيء يبطل فيه ختم الله المتعذّر محوه.

ما أروع هذه الطريقة لشرح الموت، التفت رجل مريض إلى طبيبه عندما كان يهمّ بمغادرة غرفة المعاينة وقال: أيّها الطبيب أنا خائف من أن أموت. أخبرني ماذا يوجد في الناحية الأخرى من الحياة. أجاب الطبيب بمنتهى الهدوء: لا أعرف. لا تعرف؟ أنت، الرجل المسيحيّ، لا تعرف ماذا يوجد في الوجه الآخر للحياة؟

كان الطبيب يمسك بمقبض الباب، من الجهة الأخرى صدر صوت خربشة على الباب وأنين، وما إن فتح الباب، حتّى انطلق كلب إلى الغرفة ووثب عليه وعليه ملامح السعادة. التفت الطبيب إلى المريض قائلاً: هذا الكلب لم يأتِ إلى هذه الغرفة قطّ قبل الآن، ولا يعلم ماذا يوجد فيها، إنّه لا يعلم سوى أنّ سيّده موجود فيها، وعندما فتح الباب انطلق داخلاً بدون خوف. أنا أعرف القليل عمّا يمكن أن يكون في الجهة الأخرى من الموت، لكنّي متأكد من شيء واحد... أنا أعلم أنّ سيّدي هناك وهذا يكفي.

عبر البريد الإلكترونيّ وصلتني هذه الرسالة، المعبرة عن سماح الله بالألم والعذاب:

دخل رجل إلى حلاّق ليقصّ له شعره ويهذّب لحيته، وإذ ابتدأ

الحلاّق عمله تحدّثا بأمور ومواضيع شتّى وإذ تطرّقا إلى الدين قال الحلاّق: «أنا لا أؤمن بوجود الله». لم تقول ذلك؟ سأله الزبون. «ما عليك سوى الخروج إلى الشارع لتتأكّد من عدم وجود الله. لو كان موجودًا فلم هذه الكثرة من المرضى، ولم الأطفال مهجورون. فلو كان الله موجودًا لما كان هناك من ألم أو عذاب. فأنا لا أتصوّر إلهًا محبًّا يسمح بكلّ ذلك». تفكّر الزبون بكلامه فتردّد ولم يشأ التعليق لئلاّ يدخلا في جدل. وإذ أكمل الحلاّق عمله، غادر الزبون. فما إن خرج حتّى شاهد إنسانًا في الشارع أشعث الشعر، طويله، وسخًا مع لحية غير مشذّبة. كان وسخًا وغير مرتّب الهندام، فاستدار عائدًا إلى الحلاّق، قائلاً: «أتعلم؟ الحلاقون لا وجود لهم». كيف تقول ذلك وأنا أقف أمامك وقد قصصت شعرك للتوّ؟ أجاب الحلاّق عجبًا. «بالفعل، الحلاّقون لا وجود لهم، فلو أنهم موجودون لما كان هنالك أناس ذوو شعر طويل وسخ ولحى شعثاء كذلك الرجل الذي في الخارج». ولكنّ الحلاّقين موجودون، وهذا ما يحدث عندما لا يأتون إليّ، أجاب الحلاّق». «بالضبط، أكّد الرجل. هذا بيت القصيد. الله موجود أيضًا! وهذا ما يحدث عندما لا نتوجّه إليه ونسأله العون. هذا سبب وجود هذا الكمّ من الألم والعذاب في العالم».

«وانما أذِنِ الرب ان تعرِض له هذه التجربة لتكون لمن بعده قدوةُ صبره كأيوب الصدّيق»

(طوبيا ٢: ٢١)

الصلاة والصبر

الصلاة نتيجة الإيمان ومتعلّقة به مباشرةً وهي شرطه. الصلاة كعلاقة مباشرة وتواصل شخصيّ مع المسيح والله تصوغ إيماننا. الصلاة تقينا الحزن والكآبة. عند قراءتنا في سفر المزامير: «الله لنا ملجأ وقوّة. عون في الضيقات وجد شديدًا. لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الأرض، ولو انقلبت الجبال إلى قلب البحار» (مز ٤٦: ١-٢)، ندرك تأثير الصلاة التي تتلى بثقة تامّة بأنّها مسموعة لدى الله الحيّ والذي يرى ويسمع «في الخفاء» (متّى ٦: ٦). ويستخلص الكاتب: «أمّا أنا فأغنّي بقوّتك، وأرنّم بالغداة برحمتك، لأنّك كنت ملجأ لي، ومناصًا في يوم ضيقي» (مز ٥٩: ١٦). وفي مزمور آخر يقول: «في يوم ضيقي أدعوك، لأنّك تستجيب لي» (مز ٨٦: ٧)؛ و«صرخت من كلّ قلبي. استجب لي يا ربّ. فرائضك أحفظ» (مز ١١٩: ١٤٥) وأيضًا: «أسكب أمامه شكواي. بضيقي قدّامه أخبر» (١٤٢: ٢). أمّا أنا فنائل التعزية لأنّي «في يوم ضيقي التمست الربّ» (مز ٧٧: ٢) لأنّه الوحيد الذي أقدر على أن أصرخ إليه لكيما «يخرج من الضيق نفسي» (مز ١٤٣: ١١).

«أحبّك يا ربّ، يا قوّتي. الربّ صخرتي وحصني ومنقذي. إلهي صخرتي به أحتمي. تُرسي وقرن خلاصي وملجئي... في ضيقي دعوت الربّ، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدّامه دخل أذنيه» (مز ١٨: ١-٦). «لأَنِّي لَكَ يَا رَبُّ صَبَرْتُ، أَنْتَ تَسْتَجِيبُ يَا رَبُّ إِلهِي» (مز ٨٣: ٥١).

من المهمّ مواصلة الصلاة بدون تذمّر في ألمنا. وهذا ما يكتبه

الرسول بولس إلى أهل رومية: «كونوا صابرين في الضيق، مواظبين على الصلاة» (رو ١٢: ١٢).

يعرض لنا العهد الجديد معنى الصلاة وحاجتها. صلّى يسوع في الأناجيل ولأسباب عدّة؛ صلّى لدرء تجارب الشيطان وانتصر. صلاته قبل آلامه مثال لصلاة يريدنا أن نؤدّيها، جثا ثمّ صلّى باتّضاع سائلاً إتمام مشيئة أبيه، على مثال ما قد علّمنا «أبانا الذي في السموات...»، صلّى على الرجاء «كلّ شيء مستطاع لك» (متّى ١٤: ٣٦). استجيبت صلاته وقد حضر الملاك يشدّد المسيح المعذّب، فصلّى بأشدّ لجاجة (لو ٢٢: ٤٣-٤٤). عندما تحرثنا الآلام عميقًا فلنصلّ، على مثال المسيح نفسه، المعزّي وحده.

يُشدّد الرسول بولس في رسائله على قوّة الصلاة ومثاله المسيح. في الرسالة إلى العبرانيّين يقول: «الذي، في أيّام جسده، إذ قدّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرّعات للقادر على أن يُخلّصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه» (عب ٥: ٧). في بعض رسائله يشرح كم قاسى من الآلام والتجارب و يذكر صلواته الحارّة الصادقة. في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس يقول إنّه صلى إلى الربّ ثلاث مرّات لينجيّه من شوكة الجسد (٢كو ١٢: ٧-٨). كذلك في رسالته إلى فيليمون يصلّي لإعتاقه من قيوده (فيل ٢٢). كما يحثّ الكولوسيّين على «مواظبة الصلاة» (كول ٤: ٢). أمّا الذهبيّ الفم فينصح بما يعزيّ بقوله: «إن داهمك الحزن، تعزّ بالصلاة لتتخطاه. في الدمار، في الموت، في التجربة، في التشهير، في المحنة، عند موت قريب، في المرض، التمس الربّ فتجد التعزية بالتحدّث معه»[٣٦].

[36] St. John Chrysostom, Commentary on the Epistle to the Colossians. Homily IX. The Early Church Fathers.

القدّيس يوحنّا السلّميّ ينصح بالتالي: «بعد صلاة طويلة لا تقل إنّك لم تنتفع... ما هو أفضل عند الحزن من الالتصاق بربّ الرحمة والتعلّق به؟ بذلك تتجنّب كلّ حزن وفكر رديء وتجربة. ففي الحزن استعدوا بدوام الصلاة في نفوسكم وسرعان ما تتقدّمون»[٣٧].

بالصبر نحيي إيماننا وصلواتنا، وبدون الإيمان لا ننال النتائج المرجوّة. كما يقول الرسول بولس، في مشقّاتكم «تحتاجون إلى الصبر، حتّى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعد» (عب ١٠: ٣٦)، وكما يقول أيضًا الرسول يعقوب: «احسبوه كلّ فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوّعة، عالمين أنّ امتحان إيمانكم ينشئ صبرًا. وأمّا الصبر فليكن له عمل تامّ، لكي تكونوا تامّين وكاملين غير ناقصين في شيء» (يع ١: ٢-٤). بالنسبة إلى بولس فالمشقّات تقود إلى الصبر والرجاء في درب الربّ: «وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا في الضيقات، عالمين أنّ الضيق ينشئ صبرًا، والصبر تزكيةً، والتزكية رجاءً، والرجاء لا يخزي، لأنّ محبّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو ٥: ٣-٥). يستذكر بولس دائمًا تجاربه الشخصيّة عن التجارب والاضطهادات والألم والمشقّات التي كابدها وانتصر عليها، ليعلّمنا كيف نستفيد من حالات مشابهة. في الصبر نثمر روحيًّا كما يقول الإنجيليّ لوقا: «والذين في الأرض الجيّدة، هم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيّد صالح، ويثمرون بالصبر» (لو ٨: ١٥).

وأيضًا يقول: «أمّا كان ينبغي أنّ المسيح يتألّم بهذا ويدخل إلى مجده؟» (لو ٢٤: ٢٦) ومن هذه المنزلة يقودنا بولس إلى منزلة أعلى بقوله: «إن كنّا نتألّم معه لكي نتمجّد أيضًا معه» (رو ٨: ١٧) وهذا

---

[٣٧] St. John Climacus, Sermon XXIIX: On Prayer.

الصبر هو «ثمر الروح» (غل ٥: ٢٢، كول ١: ١١). في التجارب يصبح الصبر هذا مورّدًا لنا الرجاء لأنّه «لا يخيب» (رو٥: ٣-٥).

القدّيس أوغسطين في مقالته «على الصبر» يكتب:[٣٨]

٢. صبر الإنسان الصائب والمحمود والمستحقّ أن يدعى فاضلاً، هو ما نحتمل به الشرور بعقل هادئ لننمو إلى ما هو أفضل، وحتّى لا نجافي الصواب بعقل متقلقل. أمّا المتبرّم فبينما لا يتألّم، لا يتحرّر من الآلام، بل يقاسي آلامًا أشدّ. أمّا المريض الذي يختار عدم الالتزام باحتمال الشرّ، بدل عدم احتماله الالتزام، كلاهما يبسّطان ما يقاسيه بالصبر، ويتجنّب آلامًا أسوأ تغرقه بتبرّمه. أمّا الأشياء العظيمة والأبديّة فلا يخسرها لأنّه لم يستسلم للشرور المؤقّتة والقصيرة الأمد لأنّ الرسول بولس يقول: «فإنّي أحسب أنّ آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو ٨: ١٨). ويردف «لأنّ خفّة ضيقتنا الوقتيّة تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًّا» (٢كو ٤: ١٧).

٦. يقول الربّ «بصبركم اقتنوا أنفسكم» (لو ٢١: ١٩). فهو لا يقول مزارعكم، مديحكم، كماليّاتكم بل «أرواحكم». فإن كانت النفس تتحمّل مشقّات جمّة تكون سبب ضلالها، فكم ستحتمل حتّى لا تضل؟ وحتّى لا نذكر ملامة، فإن كانت تتحمل آلامًا كثيرةً لإنقاذ الجسد بأيدي الجرّاحين قطعًا أو حرقًا لا فرق، فكم ستحتمل لخلاصها من ثورات أعداء دائمين؟ ولئلاّ يموت الجسد يلجأ الجرّاحون إلى الوجع لخيره: أمّا الأعداء فبتهديدهم الجسد بالألم والموت، يدفعوننا إلى نحر النفس والجسد في الجحيم.

٧. ويضيف، «بالرجاء نخلص. لكنّ الرجاء المنظور ليس رجاءً:

[38] St.Aurilius Augustine. On Patience. The Early Church Fathers.

فلمَ نرجو ما ننظر؟ أمّا إن كنّا نرجو ما لا نراه فبالصبر ننتظره». فعندما تعذّبنا العلل ولا تنتزع منّا أعمالاً شرّيرة، تُقتنى النفس بالصبر؛ لكن حتّى في الصبر متى تعذّب الجسد أو ضلّ لوقت ما، فإنّه يُسترجع للاستقرار والخلاص الأبديّ، وله بالحزن والموت سلامة منيعة وخلود بهج بانتظاره. لذلك فعندما حثّ المسيح شهداءه على الصبر، وعدهم بكمال الجسد مستقبلاً، ولا أقول بدون خسارة أيّ عضو منه بل أيّ شعرة. فهو يقول: «الحقّ أقول لكم، وشعرة لن تسقط من رؤوسكم». وهذا صحيح لأنّ الرسول بولس يقول: «لم يبغض أحد جسده قط» (أف ٥: ٢٩)، لأنّ المؤمن بالصبر يهتمّ بلحتراس بجسده ويعوّضه خسائره، مهما بلغت، طمعًا بالربح الذي لا يثمّن بالخلود المستقبليّ.

١١. فليسمع القدّيسون ما يقوله الكتاب عن أحكام الصبر: «إن أردت خدمة الربّ فاستعد يا ابني للتجربة. كن حازمًا مستقيم القلب، ولا تتسرّع وقت المصائب. تمسّك بالربّ ولا تبتعد عنه، فتكرّم أواخر حياتك. تقبّل ما يحلّ بك، واصبر على اتّضاع مقامك. فالذهب تطهّره النار وخيرة الناس يطهّرهم جمر الاتّضاع» (سي ٢: ١-٥). وفي كتاب الأمثال نقرأ: «لا ترفض مشورة الربّ ولا تكره توبيخه لك. فمن يُحبّه الربّ يوبّخه ويرضى به كأب بابنه» (أم ٣: ١١-١٢). فما يقال هنا عمّن «يحبّه الربّ»، هو الشهادة عن «الابن البارّ». وهذا عدل، فبعد غبطتنا الأولى في الفردوس طُردنا لتمرّد شهواتنا، ولكنّنا بالصبر المتواضع لِما يغيظنا نسترجع، طُردنا لعملنا الشرّ واستُعدنا بتحمّلنا الشرّ، هناك أثمنا أمام البارّ وهنا نصبر على الإثم من أجل البرّ.

يخاطب الذهبيّ الفم أبناء وطنه خلال اضطهاد الملك ثيوذوسيوس قائلاً: «هذا أمر آخر يجدر بالمسيحيّين أن يتباينوا فيه عن غير المؤمنين

بلحتمال الألم بنُبل؛ وبالرجاء في المستقبل نرتقي فوق هجمات الشرور البشريّة. المؤمن يقف على الصخر ولذلك لا تسقطه الأمواج العاتية. وإن ارتفعت أمواج التجارب فلن تبلغ قدميه. فهو أعلى من هذه الهجمات. فدعونا لا نغرق أيّها الأحبّة! نحن لا نحرص على سلامتنا بمقدار حرص خالقنا. فلا نقلق كثيرًا من جهتنا لئلاّ نقاسي المحن الرهيبة، بل نكون مع الذي منحنا روحًا وأعطانا خيرًا عميمًا بجانبه. فلنمتط أجنحة الرجاء ولنكن مستعدّين كعادتنا لسماع ما هو على وشك النطق به»[39]. في السياق عينه يكتب الإنجيليّ يوحنّا: «أنا أعرف ما أنت عليه من الشدّة والفقر، مع أنّك غنيّ. وأعرف ما يفتري به عليك الذين يزعمون أنّهم يهود وما هم بيهود، بل هم مجمع للشيطان. لا تخف ممّا ينتظرك من الآلام، فسيلقي إبليس بعضكم في السجن ليمتحنكم، فتعانون الضيق عشرة أيّام. كن أمينًا حتّى الموت، وأنا أعطيك إكليل الحياة» (رؤ ٢: ٩-١٠). الكلمة الرئيس في هذه الجملة هي «أنت غنيّ». بالطبع اغتنينا بمقاومتنا المحن، الألم، الاضطهاد، فلسنا فقط أغنياء بل متوّجون: «من غلب أعطيه أن يجلس معي على عرشي، كما غلبت أنا فجلست مع أبي على عرشه» (رؤ ٣: ٢١). ويسوع نفسه قد وعدنا بأن «يبغضكم جميع الناس من أجل اسمي. والذي يثبت إلى النهاية يخلص» (متّى ١٠: ٢٢).

في الربّ إذًا الصبر والرجاء «رجائي أنت يا سيّدي الربّ، وعليك اتّكلت منذ صباي. إليك استندت من الرحم، ومن أحشاء أمّي أنت كفايتي، ولك أهلّل في كلّ حين» (مز ٧١: ٥-٦). ان المتقين للرب يحفظون وصاياه و يصبرون إلى يوم افتقاده (سي ٢: ١٢). أليس

[39] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily II (9). The Early Church Fathers.

هو ملجأنا لكونه ربّ الصبر، وكما نتعزّى فلنعزّ الآخرين أيضًا متى أمكننا، كما يوصينا الرسول بولس: «فهو الذي يعزّينا في جميع شدائدنا لنقدر نحن بالعزاء الذي نلناه من الله على أن نعزّي سوانا في كلّ شدّة» (٢كو ١: ٤).

النعمة الإلهيّة تمنحنا التعزية ولنا رجاء لأنّكم «تشاركوننا في العزاء مثلما تشاركوننا في الآلام» (٢كو ١: ٧)، وكمسيحيّين «لست أنا أحيا بل المسيح الذي فيّ» (غل ٢: ٢٠). وبما أنّنا «نحمل موت يسوع في أجسادنا»، فمن الضروريّ «أن تُستعلن في أجسادنا حياة يسوع المسيح» (٢كو ٤: ١٠). ماذا يُستعلن؟ إنّها حياة الصبر بما أنّ ربّنا وإلهنا هو «إله الصّبر والعزاء» (رو ١٥: ٥).

أيّوب في آلامه صبر كثيرًا مع أنّه خاطب الله كأنّه بعيد عنه أو غير سامع: «والآن روحي تفيض منّي وأيّام البؤس تطبق عليّ. في الليل تنتخر عظامي ويقضّ الألم مضجعي... إليك أصرخ فلا تجيب. وأمامك أقف فلا تنتبه... ولكن إلى المساكين مددت يدي أُغيثهم إذا استغاثوا بي... وإن قمت بين الناس فلأبكي. صرت أخًا لبنات آوى ورفيقًا لطيور النعام. تحوّل جلدي إلى سواد واحترقت عظامي من الحرارة. كنّارتي غدت للنحيب ومزماري لصوت البكاء» (أيّ ٣٠: ١٦-٣١). يعلّق الرسول يعقوب على صبر أيّوب قائلاً: «هَا نَحْنُ نُطَوِّبُ الصَّابِرِينَ سمعتم بصبر أيّوب وعرفتم كيف كافأه الرّبّ. فهو رؤوف رحيم» (يع ٥: ١١). الصبر يعدّنا لما هو مستقبليّ؛ السعادة والبركة، على مثال أيّوب. فهم أيّوب تمامًا أنّ آلامنا دلالة على بنوّتنا لله، وفي هذا الصدد يكتب الرسول بولس: «فتحمّلوا التأديب، والله إنّما يعاملكم معاملة البنين، وأيّ ابن لا يؤدِّبه أبوه؟ فإذا كان لا نصيب

لكم من هذا التأديب، وهو من نصيب جميع البنين، فأنتم ثمرة الزّنى لا بنون. كان آباؤنا في الجسد يؤدّبوننا وكنّا نهابهم، أفلا نخضع بالأحرى لأبينا في الروح لننال الحياة؟» (عب ١٢: ٧-٩). كما يكتب أيضًا «وأرى أنّ آلامنا في هذه الدنيا لا توازي المجد الذي سيظهر فينا» (رو ٨: ١٨).

يقابل الذهبيّ الفم التجاربِ وضرورة الصبر، كتعاقب فصل الشتاء والصيف. ليس الشتاء فصلاً ضائعًا، إنّه أوان البذر، أمّا الصيف فأوان حصاد الخيرات، والمشقّات كذلك تعيد الفكر الضالّ إلى نفسه. يقول: «فلنشكر الله حتّى على هذه، فقد حصدنا ثمرًا وفرًا من الشدائد؛ وانتفعنا كثيرًا من التجربة. فلولا التجارب لما وجد الإكليل، ولولا المصارعات ما من جائزة؛ وإن لم تكن حلبة محدّدة، لم يكن من فخر؛ إن لم تكن شدائد فلا راحة؛ وإن لم يكن من شتاء فلا صيف يعقبه. وهذا تاليًا ما يحصل لا فقط للإنسان بل للبذور ذاتها؛ فإن انتظرنا أن تثمر الذرة، فيجب أن تمطر كثيرًا وتاليًا تتجمّع الغيوم ويحصل جليد؛ فأوان البذر ماطر. وبما أنّنا في شتاء، لا الشتاء الطبيعيّ، بل شتاء نفوس قد أقبل، فلنبذر أيضًا في هذا الموسم لنحصد في الصيف... لذلك، كما يقلب الحارث الأرض مهيّئًا مكانًا آمنًا للبذور، حتّى لا تقع على سطح التربة، بل في بطن الأرض حيث تفرخ جذورها بسلامة؛ كذلك أيضًا من واجبنا أن نعمل مستفيدين من محراث المحن ليقلب أعماق قلبنا. ويذكّر النبيّ إشعيه بذلك بقوله: «مزّقوا قلوبكم لا أثوابكم». فلنشقّ قلوبنا حتّى نقتلع أيّ نبات شرّير، أيّ فكر غادر منا، لنهيّئ أرضًا طاهرة لبذور الصلاح. فإن لم نحرث الآن أرض البور؛ إن لم نبذرها الآن ونسقها بالدموع بينما نحن في زمن الشدائد والصوم فمتى يؤنِّبنا ضميرنا؟ أفي زمن الراحة والرفاهية؟ هذا مستحيل. فالراحة

والرفاهية غالبًا ما تقود إلى التبطّل تمامًا كما تعيدنا التجارب ثانيةً إلى الجهاد وتسترجع الفكر التائه الحالم برغبات لا تحصى.

في الخطبة ذاتها يتابع الذهبيّ الفم واصفًا إيمان أيّوب وصبره: «اسمعوا ما يقوله المسيح، «فمن سمع كلامي هذا وعمل به يكون مثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وفاضت السيول وهبّت الرياح على ذلك البيت فما سقط، لأنّ أساسه على الصخر ومن سمع كلامي هذا وما عمل به يكون مثل رجل غبيّ بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وفاضت السيول وهبّت الرياح على ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيمًا» (متّى ٧: ٢٤-٢٧؛ لو ٦: ٤٧-٤٩). بنى الأوّل منزلاً وكذلك الثاني. البناء كان ذاته والتجارب ذاتها أمّا النهاية فلم تكن كذلك لأنّ الأساسات لم تكن ذاتها. عمل البنّاء الأحمق وليست المواد المستعملة كان السبب في سقوط البناء؛ وإلاّ لسقط البناء الآخر المؤسّس على الصخر. لا تظنّوا أنّ هذا المثل هو عن البيوت؛ فالحديث هو على النفس العاملة بالكلمة الإلهيّة أو تلك التي ترفضها. هكذا بنى أيّوب نفسه. نزل المطر؛ نزلت النار من السماء وأهلكت مواشيه؛ جرت السيول؛ وتوالى الرسل يخبرونه عن نوائبه وإبادة قطعانه... جماله... أولاده. هبّت العواصف... كلمات امرأته المرّة:... «جدّف على الله ومت». لم يسقط البيت: لم تستأصل النفس، لم يجدّف البارّ بل شكر قائلاً، «الربّ أعطى والربّ أخذ، فليكن كما يحسن في عين الربّ». وكما يقول بولس أيضًا الذي قاسى المشقّات: «والصبر امتحان لنا، والامتحان يلد الرجاء» (رو ٥: ٤)»[40].

وهنا أستذكر قول بولس الرسول: «والله الذي يرى ما في

[40] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily IV (2). The Early Church Fathers.

القلوب يعرف ما يريده الروح، وكيف أنّه يشفع للقدّيسين بما يوافق مشيئته» (رو ٨: ٢٧-٢٨).

بقدر ما جُرِّب أيّوب ورغم سؤاله الله عن سبب بلاياه يقول: «هنيئًا لمن يؤدّبه الله، ومن لا يرفض مشورة القدير» (أيّ ٥: ١٧). وفي السياق عينه يقول كاتب المزامير: «هذا كلّه وقع علينا وما نسيناك ولا خنّا عهدك» (مز ٤٤: ١٨). والذهبيّ الفم شكر الربّ من منفاه الظالم قائلاً: «المجد لله على كلّ شيء».

إن قبلنا قول الرسول بولس إلى العبرانيّين: «ولعلّكم نسيتم الكلام الذي يخاطبكم كبنين لا تحتقر، يا ابني، تأديب الربّ ولا تيأس إذا وبّخك، لأنّ من يحبّه الربّ يؤدّبه ويجلد كلّ ابن يرتضيه. فتحمّلوا التأديب، والله إنّما يعاملكم معاملة البنين، وأيّ ابن لا يؤدِّبه أبوه؟ فإذا كان لا نصيب لكم من هذا التأديب، وهو من نصيب جميع البنين، فأنتم ثمرة الزّنى لا بنون» (عب ١٢: ٥-٨)، حينها نشعر بأنّها هبة حبّ من الربّ. سُكنى الألم في أبعاده الروحيّة حوار محبّة بنويّ مع المسيح الربّ. وهنا أيضًا يواصل الرسول بولس كلامه للعبرانيّين بأنّ علينا الاحتمال انضباطًا بما أنّ الله يعاملنا كأبناء (عب ١٢: ٨). وفي الرسالة إلى أهل رومية يقول قولاً مشابهًا عن سبب احتمالنا المشقّات (رو ٨: ١٨). هكذا احتمل القدّيسون والبررة النفي والمشقّات وحتّى الموت. عندما نتجنّد لعمل الربّ علينا الاستعداد لتحمّل التجارب والمحن وصنوف الآلام، لتكمّل قوّة الله في المتألّمين.

مجرّحين ومنسحقين من الآلام لكن ثابتين بالإيمان والمحبّة للمسيح ندخل تدريجًا «هيكل الله» (مز ٧٣: ١٧) ونتعلّم كيف نحتمل الألم ككشف للخطّة الإلهيّة التي تقود إلى الإعتاق والتقديس،

للخلاص والتألّه.

في مقالة كتبها الأب جوزيف ألن إثر رقاد زوجته في العام ١٩٨٩ يقول: «الآن أعلم بالضبط أنّ مناخًا معيّنًا ساعد على شفائي: ذلك المناخ كان جماعة الله المحتفلة بالليتورجيا، الممارسة في حياة الرعيّة اليوميّة، منعشة بوصال المحبّة، لا كأبناء رعيّة بل كإخوة وأخوات في الربّ حقيقيّين. تلك هي مقوّمات عناية الله التي بها تدفّقت نعمته إلى داخلي وشفتني. نحن في سلام مع الماضي ونحيا الآن مع الرجاء المعطى بنعمة الله».

«أنتم تحزنون الآن، ولكنّي سأعود فأراكم، فتفرح قلوبكم فرحًا لا ينتزعه منكم أحد».

(يو١٦: ٢٢)

الفرح في الألم

لا يلغي الربّ التجارب والشدائد أو ينزعها، بل يبقيها موجودة. إبداع الله وخيريّته يتجلّيان عندما يدعنا نجرّب فيعزينا (متّى ٥: ٥) بدل إبعادها. تتعزى النفس كثيرًا وتتقدّس بعد أن تُنقذ ممّا أحزنها، ما يبيّن حبّه بإبرائنا من أحزاننا. المسيح لا يلغي الألم والموت، إنّما يبيدهما ويضنيهما بآلامه ويمنحنا الرجاء بالفرح (عب ٢: ١٤). وهذا ما يحصل لأنّه وحده القادر على أن يحوّل الألم إلى فرح. بما أنّنا نؤمن بالحياة بعد القبر فما الموت سوى حدث في حياتنا البيولوجيّة. لا يمنع المسيح الدموع بل يمسحها هنا وفي الحياة الأبديّة، وبما أنّه ابتلع الموت «يبلع الموت إلى الأبد، ويمسح السيّد الربّ الدموع عن كلّ الوجوه، وينزع عار شعبه عن كلّ الأرض، لأنّ الربّ قد تكلّم» (إش ٢٥: ٨). هكذا تعامل مع أرملة ناين طالبًا منها ألاّ تبكي (لو ٧: ١٣). وهذا ما سيكون في ذلك اليوم «لأنّ الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حيّة، ويمسح الله كلّ دمعة من عيونهم» (رؤ ٧: ١٧). فالفرح وحده سيسود، «وسيمسح الله كلّ دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد، لأنّ الأمور الأولى قد مضت» (رؤ ٢١: ٤).

وليبرهن لنا المسيح عن مقدار ذلك الفرح هو يذكّرنا بالولادة: «المرأة وهي تلد تحزن لأنّ ساعتها قد جاءت، ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدّة لسبب الفرح، لأنّه قد ولد إنسان في العالم» (يو ١٦: ٢١). وكذلك فحزن التلاميذ على موت معلّمهم «سينقلب إلى

فرح» (يو ١٦: ٢٠). في حياتنا نختبر الألم والحزن لأنّ ذاك ما جلبه آدم على نفسه لمعصيته؛ وقال لآدم: «لأنّك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونةٌ الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كلّ أيّام حياتك. وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزًا حتّى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنّك تراب، وإلى التراب تعود» (تك ٣: ١٧-١٩). المسيح أكّد لنا أيضًا أنّ سلامه وفرحه سيسودان بقوله: «قد كلّمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٣). هذا يناله كلّ منا، بدون استثناء ولكنّه سيؤول في النهاية إلى الفرح. فرح الروح القدس يشفي جراح الألم والحزن «إذ قبلتم الكلمة في ضيق كثير، بفرح الروح القدس» (١تس ١: ٦).

الحياة المسيحيّة بطوليّة وكلّ مسيحيّ يحمل صليبه. المسيح الذي حمل صليبه أيضًا، يعلم مقدار ثقله وسيعيننا على حمله، لأنّه لن يحمّلنا ما لا طاقة لنا به. ولن يحمّلنا ألمًا فوق احتمالنا البشريّ.

بالصليب يتنقّى المتألّم ويتقدّس لأنّ الصليب يقتل الجزء المؤذي فينا بألم يوميّ.

لن يسمح الربّ بأن نتألّم فوق طاقتنا واحتمالنا. إن طلبناه كأطفال فسيدلّنا على طريق الاحتمال والنجاة «لم تصبكم تجربة إلاّ بشريّة. ولكنّ الله أمين، الذي لا يدعكم تجرّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ، لتستطيعوا أن تحتملوا» (١كور ١٠: ١٣) عندها يعطينا الألم شخصيّةً مختلفة.

غير أنّ القاعدة التي يجب أن نتّبعها هي أن نحتمل كلّ ما يأتينا

من الله بشكر؛ فإنّما التجارب تصيبنا بسبب معاصينا، وترسل أيضًا لنصير مقبولين بحسب قول الربّ لأيّوب، «لعلّك تناقض حكمي، تستذنبني لكي تتبرّر أنت؟» (أيّ ٤٠: ٨)[41].

يمكننا حزننا من أن نفهم حزن الآخرين والرغبة في مشاركتهم تلك اللحظات الصعبة. كذلك أراد المسيح مشاركة تلاميذه حين آلامه عندما ذهب للصلاة. في هذا الصدد يقول القدّيس إسحق السريانيّ: «لا يتجرّأ أحد على القول بأنّه نال محبّة القريب إن لم يمارسها بالأعمال على مقدار قدرته وتحمّله، وفي الزمان والمكان المناسبين»[42]. وكذلك يحثّنا الرسول بولس كأعضاء جسد واحد على أن نتهلّل أو نبكي مع بعضنا البعض بمحبّة أخويّة: «المحبّة فلتكن بلا رياء. كونوا كارهين الشرّ، ملتصقين بالخير. وادّين بعضكم بعضًا بالمحبّة الأخويّة، مقدّمين بعضكم بعضًا في الكرامة، فرحًا مع الفرحين وبكاءً مع الباكين» (رو ١٢: ٩-١٠، ١٥). وعندما نقوم بذلك نُتمّ وصيّة المسيح «فيجيب الملك ويقول لهم: الحقّ أقول لكم: بما أنّكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (متّى ٢٥: ٤٠). وهكذا فكلّ ما نعمله تجاه أخ حزين بمحبّة صادقة فللربّ نعمله. حبّ كهذا للمسيح وللقريب وقت حزنه لا ينتظر مبادلةً، لأنّه متمّم بمودّة مقدّسة، بدون أنانيّة. الرسول بولس طلب أيضًا من الذين تعزّوا بنعمة الربّ أن يُعزّوا الآخرين عند الحاجة: «مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كلّ تعزية، الذي يعزّينا في كلّ ضيقتنا، حتّى نستطيع أن نعزّي الذين هم في كلّ ضيقة بالتعزية التي نتعزّى نحن بها من الله» (٢كو ١: ٣-٤).

---

[41] St. John Chrysostom, Homilies addressed to the People of Antioch Concerning the Statues, Homily IV (4). The Early Church Fathers.

[42] St. Issac the Syrian, Sermon IV. The Works.

القدّيس باسيليوس الكبير قال أيضًا: «من اللائق إذًا أن تكون لنا محبّة لبعضنا البعض وارتباط كما ترتبط أعضاء الجسد مع بعضها. يرغب الإنسان بجسد صحيح لأنّ تألّم أيّ عضو يؤدّي لتألّم الجسد كله. إن أحبّ أحد أفراد الجماعة إنسانًا آخر أكثر من الباقين فإنّه يدين نفسه إذ ليست فيه المحبّة الكاملة... من المناسب إذًا أن نحبّ الكلّ بالتساوي ونكرم بعضنا بعضًا كما يليق. وكما يحدث بأن يؤثّر وجع عضو ما في كامل الجسد، مع أنّ بعض الأعضاء مكرّمة وعزيزة أكثر من الأخرى (فلا نكرّم العين كإصبع الرجل، مع أنّ الألم هو ذاته)، كذلك من اللائق أن نتعاطف مع الآخرين ونحبّ أعضاء الجماعة، مع أنّ الإكرام سيكون بحسب الاستحقاق، حيث يكرم الأعزّون أكثر»[43].

الطريقة الفضلى لمشاركة أخ حزنه هي الصلاة. قد لا نملك مالاً، وقتًا أو صحّة للاهتمام به، لكنّنا نقدر، على الأقل، على أن نصلّي من أجله حيثما كنا. الصلاة تهدّئ حزننا أيضًا. فليكن حزننا وحزن الآخرين حافزنا للصلاة المتواترة.

الحزن طريق يقودنا إلى القيامة حيث لا حزن، الرسول بولس يقول «فإنّي أحسب أنّ آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو ٨: ١٨).

كنيستنا كنيسة قيامة لا موت والمسيح هو «ربّ المجد» (١كو ٢: ٨، في ٢: ١١) وهو «باكورة الراقدين» (أع ٢٦: ٢٣، كول ١: ١٨، رؤ ١: ٥) وقيامته «ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين» (١كو ١٥: ٢٠).

---

[43] St. Basil the Great, Sermon IV: On Love. The Early Church Fathers.

من هذا المنظار، «نحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأنّ التي تُرى وقتيّة، وأمّا التي لا تُرى فأبديّة» (٢كو ٤: ١٨).

«لذلك أقول لكم: كلّ ما تطلبونه حينما تصلّون، فآمنوا بأن تنالوه، فيكون لكم».

(مر١١: ٢٤)

صلوات الدفن والعلاقة مع الراقدين

لماذا نصلّي للراقدين؟ المسيحيّة هي ديانة المحبّة والصلاة للراقدين فعل محبّة. نسأل الله أن يتذكّرهم لأنّنا نحبّهم. علاقة المحبّة لا تنتهي بالموت بل تتعدّاه. هناك حاجة داخليّة لاستمرار العلاقة مع المحبوب ولاستمرارها حتّى بعد الوفاة. وبالأخصّ بعد موت المحبوب لأنّ الاتّصال الحسّيّ ما عاد ممكنًا. فتشجّعنا الكنيسة على التعبير عن محبّتنا للإخوة الراقدين بإقامة الخدم والصلوات. إنّ ذكرى موت حبيب إليمة جدًّا.

ولذلك فالكنيسة تساعدنا على التأقلم مع هذا الحزن بتشجيعنا على إقامة الصلوات التذكاريّة في الكنيسة؛ أي في تذكار الثالث والتاسع والأربعين يومًا للوفاة، ذكرى الستّة أشهر، والذكرى السنويّة... وهذا يعطينا فرصةً لعمل شيء لمن نحبّ. تساعدنا هذه الصلوات على أن نعبّر عن حزننا ونبدّده. الموت يغيّب أحّباءنا عن نظرنا، لكنّه بالتأكيد لا يمكنه أن ينتزعهم من فكرنا وقلوبنا. نستمرّ بمحبّتنا لهم والتفكير بهم كما نؤمن بأنّهم يستمرّون بمحبّتهم لنا والتفكير بنا. أتقدر الأمّ على أن تنسى طفلها الذي انتقل إلى الحياة الأخرى؟ المحبّة ذاتها التي حملتها على الصلاة من أجله وهو حيّ تقودها للصلاة من أجله بعد موته. فبالمسيح جميعنا أحياء. المحبّة ذاتها تجعلها تودّ الاتّصال به. إنّما كلّ تواصل فبالمسيح وعبره فقط. ما من تواصل آخر بالراقدين ممكن أو جائز للمسيحيّ. الله هو إله الأحياء. وأحباؤنا به يحيون. بواسطته فقط يمكننا التواصل معهم. عند إقامة أيّ قدّاس

إلهيّ في الكنيسة الأرثوذكسيّة نصلّي من أجل الراقدين هكذا: «أذكر يا ربّ الذين رقدوا على رجاء القيامة والحياة الأبديّة. ارحمهم يا ربّ حيث يضيء نور وجهك».

فكما نصلّي للراقدين، فإنّنا نؤمن بأنّهم ما يزالون يحبّوننا ويتذكّروننا ويصلّون من أجلنا بما أنّهم أصبحوا أقرب إلى الله. إنّنا نتذكّر مثل الغنيّ وهو في العذاب يطلب إلى إبراهيم أن يرسل لعازر ليحذّر إخوته لئلاّ يكون مصيرهم من العذاب كمصيره. فمع أنّه فارق هذه الحياة إلاّ أنّه ما يزال يهتمّ بمصير إخوته الذين على الأرض. فلم نصلّي ونطلب شفاعة القدّيسين، ولا نطلب بالمثل من أحبّائنا الذين فارقونا؟ ألم يرقدوا مثلهم بالمسيح؟ خبرة بعض المؤمنين في هذا الموضوع تؤكّده. ثم، أيخطر ببالنا قط أن نقول عن أحد القديسين «الله يرحمه؟».

تصلّي الكنيسة الأرثوذكسية للراقدين تعبيرًا عن إيمانها بأنّ كلّ الراقدين بالربّ، بالربّ يحيون؛ وحياتهم مستورة مع المسيح في الله (كول ٣: ٣). الكنيسة عائلة واحدة، جسد واحد في المسيح، أكانت على الأرض أم في السماء. الموت يغيّر موقعنا لكن لا يمكنه أن يبتر رباط المحبّة.

تراتيل كنيستنا تزخر بأوصاف الآلام والنحيب التي يبديها الأحياء تجاه أحبّائهم الراحلين. والوجع كبير جدًّا عند مواراة ذلك الجسد الثمين القبر.

من المفيد للمحزونين أن أورد بعض مقاطع من خدمة صلاة جنّاز العلمانيّين، بما أنّهم يكونون في نوح وغمّ وحزن شديد خلال الخدمة، لدرجة أنّهم لا يتابعون الصلوات.

في خدمة صلاة جنّاز العلمانيّين، يجب أن يقرأ المزمور ٩٠ بعد الدخول بالنعش إلى الكنيسة، ومن ثمّ المزمور (١١٩) ١١٨، ما عاد المصلّون يقرأون هذين المزمورين في أغلب الأحيان، وقد يكون لتقصير الخدمة!

ومن ثم نرتّل تبريكات (أفلوجيتاريا) الأموات حيث تقول إحداها: «يا جميع الذين سلكتم في هذه الحياة الطريق الضيّقة المحزنة، وحملتم الصليب كالنير وتبعتموني بإيمان، هلمّ تمتّعوا بما أعددته لكم من الجوائز والأكاليل السماويّة». وفي أخرى: «أرح يا الله عبدك (أمتك) ورتّبه في الفردوس حيث مصاف القدّيسين مع الصدّيقين مثل الكواكب يتلألأون. فهناك أرح يا ربّ عبدك الراقد معرضًا عن جميع زلاّته». ومن ثمّ «أرح يا مخلّصنا عبدك هذا مع الصدّيقين وأسكنه في مساكنك كما هو مكتوب...».

من بعد الطلبة نرتّل: «مع القدّيسين أرح أيّها المسيح نفس عبدك (أمتك) حيث لا وجع ولا حزن ولا أنين بل حياة لا تفنى».

بعض هذه التراتيل موجّه إلينا بمعنى أن نعتبر من مصير هذا العزيز، والذي سنصيره يوميًا، وأن ننتبه لسلوكنا الحاليّ. الأفضل أن ننوح على أنفسنا، على خطايانا، في حياتنا الحاضرة لننال الحياة الأبديّة. في هذا السياق تقول الترتيلة: «ويلي أيّ جهاد يصير للنفس حينما تنفصل من الجسد... لأجل هذا يا إخوتي المحبوبين لنتفطّن بسرعة زوال حياتنا مستمدّين من المسيح الراحة للمنتقل ولنفوسنا الرحمة العظمى». وعند القبلة الأخيرة نرتّل: «إنّ حياتنا بالحقيقة هي مثل الزهر والبخار والندى السحريّ. فتعالوا إذًا إلى القبور لنشاهد عيانًا أين هو جمال الجسم وأين هي الفتوّة، وأين تلك الأعين وصورة

الجسد. الكلّ ضمر كالعشب. الكلّ قد اضمحلّ. فهلمّ نسجد ونركع للربّ بالدموع». ومن بعدها نقول «... فلنهرب بعيدًا من كلّ خطيئة في العالم لنرث السماويّات». وأيضًا: «هلمّ يا إخوة ننظر في القبر الرماد والغبار اللذين جُبلنا منهما. ولكن ترى إلى أين نحن الآن ذاهبون وإلى أيّ شيء نحن صائرون؟ بل من منا هو الفقير ومن هو الغنيّ؟ أو أيٌّ هو السيّد أو الحر؟ أليس الجميع رمادًا؟...». وهذه أيضًا ما عادت تقرأ لتقصير الخدمة! (من كتاب مختصر الأفخولوجي، خدمة صلاة جنّاز العلمانيّين)

تهدف خدمة صلاة الجنّاز في الكنيسة الأرثوذكسيّة إلى:

١- تستغلّ فرصة الموت لتساعدنا على تطوير مفهوم عميق لمعنى حياتنا وهدفها.

٢- تساعدنا على مواجهة عواطفنا في مواجهة الموت.

٣- تؤكّد حقيقة أنّ مفهوم الموت عند المسيحيّ هو غيره عند الذين لا رجاء لهم.

٤- تقرّ بوجود شعور الحزن، الذي يخلقه فراق عزيز، وتشجّع على التعبير عنه.

العالم غير الأرثوذكسيّ، في محاولته كبت مشاعر الحزن التي يستدعيها الموت، يحاول تغطيته بقناع. جعل الحياة قناعًا يخفي خلفه وجه الموت.

في قراءات صلاة الجنّاز وتراتيلها فكأنّما يدخل الكهنة والأقارب وأصدقاء الراحل، بل والراحل نفسه في حوار مسرحيّ. زواليّة الأرضيّات تبرز وبالمقابل تمدح البركات الأبديّة للملكوت الآتي التي لا تثمّن. وفي الوقت ذاته كبقصيدة وروح ندامة يتوسّل

الكهنة والشعب رحمة الله القدير اللامتناهية للراحل. لقد ثبت، مرّةً تلو مرّة، أنّ كلّ من يتتبّع بانتباه صلاة الجنّاز، المليئة بوخز الضمير، يستنير روحيًّا من وجوه عدّة ويتعزّى جدًّا. هذه الصلاة ليست مجرّد فرصة لنظهر محبّتنا لأخينا الراقد؛ بل أيضًا وقت مقدّس، فرصة رائعة إذ كلّ ما فيها يساعدنا على تقبّل حدث الموت المحزن، وهذه مناسبة مهمّة للتأمّل الدينيّ الورع، للتفكر الداخليّ والخبرات النافعة، كما يوصينا القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ. إذ نتأمّل بالأفكار السامية لصلاة الجنّاز تتندّم نفوسنا، ترقّ قلوبنا ونصلّي بحرارة للراحة الأبديّة ومسامحة هذا المنتقل إلى حياة ما بعد القبر.

أمّا نحن الأحياء فنحزم أمرنا لنحيا باقي حياتنا في توبة وسلوك به نحبّ الله ونتكرّس للمسيح[44].

صلاة الجنّاز الأرثوذكسيّة لا تحاول أن تخفي حقيقة الموت المؤلمة والرهيبة. يترك النعش مفتوحًا ويا لها من لحظة مؤلمة جدًّا حين يتقدّم الأهل والأقارب والأصدقاء لتقبيل الراحل.

يقول الذهبيّ الفم أيضًا: «يقول الرسول بولس كلامًا جميلاً، مستحقًّا الفردوس، ومحبّة الله للإنسان. فما يقول؟ وماذا نرتّل؟ ألسنا نمجّد الله ونشكره لأنّه قد توّج أخيرًا هذا الراقد، ولأنّه حرّره من أوجاعه، وبدون شكّ أجلسه معه؟ ألم توضع الترانيم لهذا السبب؟ والمزامير أليست لهذا الغرض؟ كل هذه الترانيم والمزامير هي للمهلّلين. فقد جاء: «أعلى أحد بينكم مشقّات؟ فليصلّ. أمسرور أحد؟ فليرتّل (يع ٥: ١٣). ولا يلتفت الوثنيّ لكلّ هذه الأمور.

لذلك لا تحزنوا قائلين، لِمَ نقاسي كلّ هذه الأمور؟ لأنّ النصر

[44] Nikolaos Vassiliadis, The Mystery of Death. The Orthodox Brotherhood of Theologians «The Savior», Athens, Greece.

يصبح أمجد. لن يكون مجيدًا إلاّ إذا أباد الموت بالموت؛ والأهمّ أنّه قهره بالوسيلة ذاتها التي استقوى بها علينا، مظهرًا في كلّ حين فيض وسائله وتفوّق أدواته. فلا نخطئ للهبة الممنوحة لنا. فقد كتب: «لأنّ الله لم يعطنا روح الفشل، بل روح القوّة والمحبّة والنصح» (٢تيم ١: ٧). فلنصمد بنبل مزدرين الموت.

لاحظوا النواح عند الآخرين فعندكم شفاؤكم. «يا نفسي ارجعي إلى راحتك، فإنّ الربّ قد أكرمك». أتنتحبون والربّ قد أكرمكم إلى هذا الحدّ؟ أوليس هذا تمثيلاً ونفاقًا؟ فإن كنت تؤمن حقًّا بما تقول، فحزنك مفرط: وإن اعتقدت أنّها خرافةٌ فلمَ ترنّم المزامير؟ ولمَ تحتمل وجود الحاضرين؟ ولمَ لا تبعد المنشدين؟ تكون أحمق إن فعلت»[٤٥].

قبل صلاة الجنّاز في الكنيسة يصلّي الكهنة، على الراقد حيث سجيّ، صلاة التريساييون أي «التسبيح المثلّث تقديسه» ومن بعدها نرتّل بحرارة إلى الربّ ليرتّب نفس الراحل مع المخلّصين ومع «أرواح أبرار مكمّلين» (عب ١٢: ٢٣) كما يشير الرسول بولس. نسترحم الربّ الذي «نزل إلى الجحيم» وخلّص المقيّدين فيه «ليريح أيضًا نفس عبده» الذي انتقل إلى الكنيسة المنتصرة. ولأنّ للعذراء النقيّة والدة الإله المنعم عليها الدالّة العظمى لدى ابنها، نسأل شفاعتها أيضًا من أجل خلاص نفس الأخ الراقد.

بعد ذلك يصلّي الكاهن إلى «إله الأرواح وكل ذي جسدٍ»، إله الملائكة وأرواح البشر، الإله الذي وطئ الموت وأبطل إبليس ومنحنا القيامة والحياة، لكي يسامح ضعفات الراقد وخطاياه بما أنّ الله وحده منزّه عن الخطيئة. نسأل أيضًا أن يغفر «الإله الصالح والمحب للبشر» كل

[45] St. John Chrysostom, On Hebrews, Homily 4. The Early Church Fathers.

خطيئة مُقتَرفة منه بقول، أو بفعل، أو بفكر، وأن يسكنه في فردوسه، حيث يشرق النور وحيث الفرح والسلام. بحسب القدّيس سمعان التسالونيكيّ فإنّ «التسبيح المثلّث تقديسه» يرنّم للراقدين لأنّهم أصبحوا خدّام الثالوث؛ لأنّهم اعترفوا به وبالإيمان رقدوا؛ ولأنّهم في طريقهم إلى الثالوث المقدّس. هناك في الفردوس سيعدّون بين الملائكة القدّيسين، المرنّمين للإله «التسبيح المثلث تقديسه» بلا انقطاع[46].

أعرف إنسانًا فقد بكره ذا الواحد والعشرين ربيعًا، وكان على عتبة التخرّج مهندسًا في المعلوماتيّة، إثر حادث سيارّة. خلال خمسة أيّام قضاها ابنه في العناية الفائقة كان أبوه يقرأ في إنجيل الجيب خاصّته. في اليوم الأوّل كان يقرأ من رسالة يعقوب والآيات الأولى كانت معزّية (يع ١: ٢-٤، ١٣) فاعتبرها علامةً من الربّ فتشدّد. خلال الساعات الأخيرة إذ كان ضغط دم ابنه يهبط باطّراد، في الساعة الثالثة صباحًا، ابتدأ بصلاة خدمة المديح، مستعملاً كتاب صلوات ابنه، ومتابعًا في خدمة البراكليسي. عند انبلاج الفجر وكان على وشك ابتداء صلاة السحر، توقّف قلب الشاب راقدًا في المسيح. الكاهن كان هناك ليُصلّي التريساييون. أمّا وجه الشاب فقد عكس سلامًا وهدوءًا.

ساعات قليلة وسجّي الجثمان في قاعة الكنيسة حيث بقي لليوم التالي، موعد الدفن. عند فتح النعش في القاعة، كان الربّ، برحمته العظمى، قد أعدّ لتعزية عائلته وأصدقائه. على وجه الشابّ وفي عينيه المغمضتين ارتسمت ابتسامة استثنائيّة. ابتسامة رضى عميق، فرح وغبطة وجمال ملائكيّ ليسوا من هذا العالم، لم تخب أو تتبدّد حتى عندما وري مقرّه الأخير. طلب والده أن تعبق تراتيل القيامة

[46] Nikolaos Vassiliadis, The Mystery of Death. The Orthodox Brotherhood of Theologians «The Savior», Athens, Greece.

في القاعة، مع قراءات من كتاب المزامير. لم تسمع أصوات نواح وعويل كما قد يحدث في مثل هذه الحالة، بل بكاء صامت. والمعزّون الكثر شعروا هم أيضًا بالسلام عينه. بعض من أصدقائه كانوا في حالة صدمة. شعر والده بمسؤوليّة تعزيتهم بخاصّة بعدما سمع من أهل بعضهم أنّهم لم يناموا الليلة السابقة، وهم يتساءلون، لماذا!! لماذا حدث هذا مع صديق محبّ. كشمّاس اشترك والده في صلاة الجنّاز وهو يبكي بصمت.

الموت انفصال ليس بانفصال. الأحياء والراقدون ما زالوا أعضاء عائلة واحدة، وكلّنا نجتمع حول مذبح الله. وكما نعلم من سير القدّيسين فإنّ هناك بعض المناسبات التي يتواصل فيها الراقدون مباشرةً مع الأحياء، إمّا كما في حلم أو في اليقظة، ومن جانبنا فيجب ألاّ نحاول فرض اتّصال كهذا. الاجتماع بيننا وبينهم لا يتمّ على المستوى النفسيّ أو العقليّ إنّما على المستوى الروحيّ، وفقط حول مائدة الإفخارستيّا.

المبدأ الشرعيّ الوحيد لتواصلنا مع الراقدين هو المشاركة في الصلاة، هو الليتورجيا أو القدّاس الإلهيّ. نحن نصلّي من أجلهم وفي الوقت عينه كلّنا ثقة بأنّهم يصلّون من أجلنا؛ وبواسطة هذه الشفاعة المتبادلة نجتمع، عبر الموت، في اتّحاد متين وثيق العرى.

الرابط الجامع بين الأحياء والراقدين يختبره الأرثوذكسيّون بعمق خلال الأربعين يومًا التي تلي الرقاد. تقام خلالها الصلوات التذكاريّة بتواتر استثنائيّ. بعد انقضاء الأربعين تخفّ تواتريّة الصلوات، مع أنّنا لا نكفّ عن تذكّرهم في صلواتنا اليوميّة الخاصّة. هذا لا يعني أن نكفّ عن الحزن بعد هذه الأربعين. أساس الصلوات المتواصلة هو

تماسكنا في المحبّة المشتركة. نصلّي للراقدين لأنّنا نحبّهم لا لأنّ الربّ سيهملهم. هذه الصلاة هي التعبير العفويّ لمحبّتنا لبعضنا البعض. على الأرض نصلّي للآخرين، أفلا نصلّي لهم بعد رقادهم؟ ألم يعودوا موجودين لنتوقّف عن الصلاة لأجلهم؟ إن كنّا أحياء أو أمواتًا فنحن نتشفّع من أجل بعضنا البعض. في المسيح القائم من الموت لا فرق بين الراقدين والأحياء.

إن كنا نؤمن بحقّ بأنّ لا انفصال بيننا وبين الراقدين فسنتكلّم عليهم بصيغة الحاضر لا الماضي. من الممكن أن نؤجّل مصالحتنا مع أحدهم وفي هذا الوقت هو يرقد. لم يفت الأوان لذلك. على العكس، فبإمكاننا وقت صلاتنا المسائيّة، في يوم الدفن ذاته، أن نكلّم الراقد كأنّه ما زال حيًّا وكأنّنا نتقابل وجهًا لوجه، وأن نسأله الصفح ونؤكّد له محبّتنا.

الموت ليس طبيعيًّا ويناقض الخطّة الإلهيّة. الموت اختبار يوميّ متتابع أبدًا. خلقنا الله لنحيا لا لنموت. الموت في انفصال الجسد والنفس إهانة عنيفة ضدّ كمال طبيعتنا البشريّة. شعورنا بالوحشة والرعب والغضب مبرّر عندما نواجه موت قريب. مع أنّ الموت مفجع إلاّ أنّه بركة في الوقت ذاته. وبالتأكيد ليس من خطّة الله الأصليّة، إلاّ أنّه يغدو تعبيرًا عن رحمته وحنانه. فإن عشنا أبديًّا في هذا العالم الساقط، مضبوطين إلى ما لا نهاية في السأم والخطيئة، إنّما هو مصير مرعب لا قدرة لنا على احتماله؛ فجعل الله لنا مخرجًا، هو يحلّ رباط النفس والجسد ليشكّلهما من جديد. هكذا نقرأ في سفر إرميا عن رؤياه: «نزلت إلى بيت الفخّاريّ، وإذا هو يصنع عملاً على الدولاب. ففسد الوعاء الذي كان يصنعه من الطين بيد الفخّاريّ،

فعاد وعمله وعاءً آخر كما حسن في عيني الفخّاريّ أن يصنعه» (إر ١٨: ٣-٤). بذلك يكون الموت سببًا في تجديدنا.

في صلاة الجنّاز ذاتها نقرأ:

على صورتك ومثالك
خلقت الإنسان منذ البدء.
ولمّا خالفت وصيّتك
أعدتني أيضًا إلى الأرض التي منها أخذت.
أعدني أيضًا إلى مثالك
لتتجدّد فيّ صورة الجمال القديم[٤٧].

عمل آخر علينا القيام به في مرحلة الحزن هذه، وهو أن ننهي علاقةً ما عادت قائمة. نحن لا نودّع الشخص، أو الذكريات ولا حتّى الأمل باللقاء مجدّدًا. ولكن علينا أن ننهي العلاقة كما كانت عليه بما أنّها ما عادت موجودة.

أيقونة القيامة لا تظهر المسيح ناهضًا وحده بل ممسكًا بآدم وحوّاء وينهضهما معه من الأعماق عبر أبواب الجحيم المخلّعة. حرّر المسيح الآباء والأنبياء والملوك، وحرّرنا معهم أيضًا. حرّر حياتنا الشخصيّة. اليد الممتدّة لآدم تمتدّ أيضًا لذرّيّته. فنحن مرتهنون للموت كذلك بما أنّنا أسرى سلطان الخطيئة. ونحن متنا كذلك وطرحنا في أسفل دركات الهاوية. إلاّ أنّ المخلّص القائم من بين الأموات يدركنا كخروف ضالّ، منحدرًا بعظيم محبّته وينتشلنا من الظلمة وينهضنا معه. يتعقّبنا في الشعاب والمفارز. إن كان الجحيم مأوانا فهو هناك، حاضر أبدًا يدركنا ليجتذبنا إليه في مجد الحياة الناهضة. ينهضنا من قلق مواجهة الموت

[٤٧] خدمة سحر الأحد الأوّل من الصوم. ترتيلة «المجد للآب» للإينوس. طريق الأمان لأبناء الإيمان.

إلى الرجاء الثابت في الحياة الأبديّة الناهضة. ينهضنا من الخوف من المستقبل إلى الفرح غير المنقوص. ينهضنا من الوحدة والإقصاء إلى الصداقة مع الله، ويجعلنا شركاء مجده الأبديّ.

ماذا ننتظر من صلواتنا للراقدين؟ بما أنّ مصير الإنسان الأبديّ يتقرّر عند موته مباشرةً، مع أنّه يجب الانتظار إلى الدينونة العامّة الأخيرة لينال كلّ منا ثوابه، فلا نتوقّع أن تنتشل صلواتنا الملحد من الجحيم إلى النعيم. حياتنا الحاضرة تقرّر مصيرنا الأبديّ. علينا أن نتوب الآن ونقبل رحمة الله. ينهي الموت الحالة التي نحياها ويحدّد دينونة الإنسان الخاصّة. لذلك أوصانا الربّ بأن «نعمل ما دام الوقت نهار» لأنّه متى «جاء الليل لا نقدر على أن نعمل شيئًا». «النهار» يعني الحياة الحاضرة، «إذ ما زال في الإمكان أن نؤمن» «والليل» هو ما بعد الموت، كما يقول الذهبيّ الفم.

ما يحدث بعد القبر يختصّ بالله وحده. وقد أخبرنا ما يجب أن نعلمه؛ أمّا الباقي فمستور بسرّ لا يستطيع فضول البشر النفاذ إليه. يسلّم المؤمنون الله حياتهم الأرضيّة. من المستحسن والأفضل الآن أن يسلّموا أحباءهم الراقدين لرحمة الله بالصلاة، لأنّهم واثقون بأنّ لله، بغنى رحمته يساعدهم بطرائق لا نعرفها. بعض آباء الكنيسة يقولون إنّ أحبّاءنا الراقدين يختبرون نوعًا من الراحة الروحيّة نتيجة صلوات أحبّتهم على الأرض.

الذكرانيّات مؤلمة دائمًا للحزانى. لذلك أقامت الكنيسة بحكمتها صلوات تذكاريّة. فلمَ لا تقيم الصلوات في الكنيسة في تلك التذكارات؟ وهل هناك يشفي الحزن أكثر من صلاة في الكنيسة مع عائلتك؟ بعض المناسبات يصعب تحمّلها ولكنّ اليوم أربع وعشرون

ساعةً وستنقضي، آوِ الله في يومك واذكر وعده «لأنّي أنا معك لأنقذك، يقول الربّ» (إر ١: ٨).

الذكرى الأولى للراقد أو ذكرى ميلاده هي الأصعب. الحزن عند ذكرى ميلاد الراحل يجب أن يكون كما تحتفل الكنيسة بأعياد القدّيسين، وهو يوم انتقالهم. يوم موتهم هو ميلادهم الحقيقيّ بمعنى يوم ميلادهم للحياة الأبديّة مع الله. عندها تتحقّق أنّ المولد الحقيقيّ لأحبّائك من الآن فصاعدًا هو يوم رقادهم. ومن المعزّي في هذه الذكرى أن تقيم لهم الصلوات الخاصّة.

هل هو عيد ميلاد المسيح؟ فأحبّاؤك لا يريدونك أن تحزن بلا رجاء. الراقد أو الراقدة يحتفلان الآن الميلاد في السماء. فاحرص بالاستمتاع بهذا العيد السيّديّ مع عائلتك وأصدقائك بأفضل طريقة ممكنة.

وضع لنا التقويم الكنسيّ مناسبات عدّة يطلب منّا فيها مجابهة حقيقة الموت. الجمعة العظيمة هي إحدى هذه المناسبات، عيد الفصح كذلك وأيّام الآحاد. كلّ أحد هو «فصح مصغّر» نحتفل فيه بانتصار المسيح على الموت. وضع التقويم الكنسيّ السنويّ سبوتًا تذكاريّة خاصّة أو ما يعرف «بسبت الأموات» ما يوفّر لنا فرصةً أخرى لمواجهة الموت؛ وهو السبت الذي يسبق أحد مرفع اللحم وسبت لعازر والسبت الذي يسبق أحد العنصرة. تحتفل الكنيسة في هذه السبوت بالخدمة الإلهيّة وترفع صلوات خاصّةً من أجل أحبّائنا الراقدين. لماذا أيّام السبوت هذه؟ لأنّ الربّ رقد يوم السبت في القبر «مستريحًا من كلّ أعماله وواطئًا الموت بالموت». لذلك في العهد الجديد يصبح السبت اليوم المناسب لصنع تذكار الراقدين والصلاة من أجلهم.

وهنا أورد من حديث للمتروبوليت إفرام كرياكوس عن أهمية الصلاة على مذبح الرب والذكرانيات لأجل الراقدين: حدث مرةً أن طُلب من الأب ألكسي (وهو راهب من دير اللافرا في كييف) أن يهتم بإلباس رفات القديس ثيودوسيوس الذي من تشيرنيغوف وذلك قبل الكشف على رفاته وإعلان قداسته بوقت قصير. جلس الأب ألكسي بقرب الرفات، ومن شدة تعبه غفا فرأى القديس ثيودوسيوس في حلمه واقفًا أمامه قائلاً له: «أشكرك لأنك تتعب معي، أودّ منك أيضًا أن تذكر والديَّ الراقدين أثناء القداس الإلهي». وأعطاه أسميهما (الأب نيقيطا وماريا). فسأله الأب الكسي «كيف تسأل صلاتي أيها القديس وأنت في السماء تتشفع من أجل خلاص العالم؟» فأجاب القديس: «نعم هذا صحيح أني في السماء، ولكن ذكر أسماء السابق رقادهم على مذبح الرب هو أقوى من صلاتي». إنه من المهم جدًا أن نصلي من أجل السابق رقادهم، كذلك عمل الإحسان نافع لهم. ولكن الأهم أن نذكر أسماءهم على مذبح الرب في كل قداس إلهي.

وفي حوار مع الشيخ باييسيوس الآثوسي من كتاب «الحياة بعد الموت»:

* أيها الشيخ، هل يستطيع الموتى المنتظرون أن يصلّوا؟

إنهم يشعرون ويلتمسون المعونة ولكنهم لا يقدرون أن يساعدوا أنفسهم. جميعُ الموجودين في الجحيم يريدون شيئاً واحدًا من المسيح: أن يعيشوا خمسَ دقائق فقط كي يتوبوا. نحن الذين لا زلنا على قيد الحياة لدينا هامش للتوبة، أمّا الموتى البائسون فلا يقدرون لوحدهم أن يحسنوا موقعهم، بل ينتظرون المعونة منا. ولهذا واجبنا

أن نساعدهم بصلاتنا. يريد الله مساعدة الراقدين لأنه يتألم لأجل خلاصهم، ولكنه لا يقوم بهذا لأنه سيّدٌ حرّ. لا يريد أن يعطي الحق للشيطان ليقولَ: «كيف تخلص هذا وهو لم يتعب؟» ولكن حين نصلي نحن لأجل الراقدين نعطيه الحق ليتدخل. طبعا يتأثر الله أكثر حين نرفع الصلوات لأجل الراقدين أكثر من الأحياء. ولهذا فكنيستنا لديها الذكرانيات والقمحُ المسلوق. الذكرانيات هي المحامي الأفضل لأجل أنفس الراقدين. إنها تمتلك القدرة على أن تخرج النفس من الجحيم.

* أيها الشيخ، هل تكون حاجةُ الذين رقدوا منذ فترةٍ قريبة، للصلاة أكبر؟

حين يدخل أحدهم السجن، ألا يستصعبُ الأمر في البداية كثيرًا فلنقم صلوات لأجل الراقدين الذين لم يعيشوا حياة مرضية لله كي يفعل اللهُ شيئًا لأجلهم.

* أيها الشيخ، حين يموت أحدهم ويُطلب منا أن نصلي لأجله، فهل من الحسن أن نصلي له مسبحة كل يوم حتى الأربعين؟

إذا كنت ستعمل من أجله مسبحة فحينها ضع معه عدة راقدين أيضاً. لأي سبب ستمضي عربة إلى هدفها حاملة مسافرًا واحدًا فقط في حين أنها تتسع لآخرين أيضًا؟ كم من راقدين بائسين يحتاجون المساعدة ويلتمسونها وليس لهم من يصلي لأجلهم! إعملوا تذكارات لأجل راقدين غرباء أيضًا. الذكرانية الأفضل التي نستطيع أن نقومَ بها لأجل الراقدين هي حياتنا اليقظوية، الجهادُ الذي سنقوم به كي نقطع كل زلاتنا ونجعل نفسنا تسطع بالنور. يشعر الراقدون بالفرح حين يكون أحد أبنائهم أو احفادهم قريبًا إلى الله.

«الإنسان مولود المرأة، قليل الأيّام وشبعان تعبًا. يخرج كالزهر ثمّ ينحسم ويبرح كالظلّ ولا يقف. والإنسان يضطجع ولا يقوم. لا يستيقظون حتّى لا تبقى السماوات، ولا ينتبهون من نومهم».

(أيّ ١٤: ١-٢، ١٢)

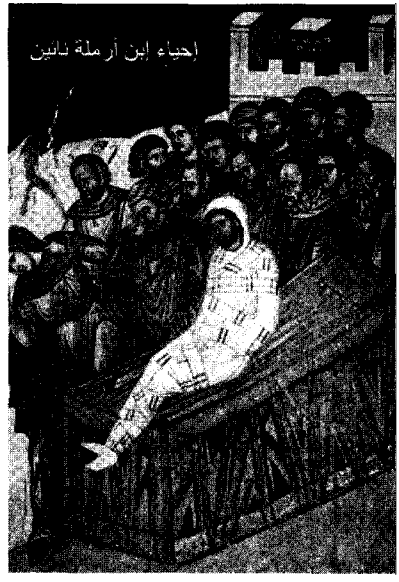

طقوس الدفن في العهد القديم

ساعة الإنسان الأخيرة دنت، وكما يقال في العاميّة «خمد نفسه»، وهو على وشك النزول إلى مثوى الأموات، لكن ليس قبل أن تفيه الجماعة حقّه.

لليهود احترام عميق للموت، كما عند جميع أمم العالم القديم، وربّما كان احترامهم أعمق أكثر، فالجسد بالنسبة إليهم هو من صنع يد الله وعلى نبل صورته. الكتاب المقدّس نصّ بصرامة على عدم ترك أجساد الموتى بدون دفن، وحتّى أعتى الأعداء، وكما ذكر حزقيال «ويقبرهم بيت إسرائيل ليطهّروا الأرض سبعة أشهر» (حز ٣٩: ١٢)، وحتّى كذلك ما جاء بشريعة موسى بما اختصّ بالمعدمين. وفي وصفه رعب الوضع الذي أباد به الوثنيّون شعب الله، يستعمل المزمور ٧٩ أقوى التعابير: «دفعوا جثث عبيدك طعامًا لطيور السماء، لحم أتقيائك لوحوش الأرض. سفكوا دمهم كالماء حول أورشليم، وليس من يدفن. صرنا عارًا عند جيراننا، هزءًا وسخرةً للذين حولنا» (مز ٧٩: ٢-٤). وأسوأ ما لعن إشعيه ملك بابل كانت: «وأمّا أنت فقد طرحت من قبرك كغصن أشنع. كلباس القتلى المضروبين بالسيف، الهابطين إلى حجارة الجبّ، كجثّة مدوسة» (إش ١٤: ١٩).

لذلك فللميت الحقّ بجنّاز بحسب ما نصّت عليه الكتب والعادات. عند موته، تُغمّض عيناه، وهذا منذ سفر التكوين (تك ٤٦: ٤)، ويقبّل بمحبّة ويغسل؛ مستعملين الأعشاب العطريّة. تنصّ «وثيقة السبت» على أنّ موت أحدهم يوم سبت، يوم الراحة، «يُعمل كلّ ما

يلزم للميت من غسل وتطييب». هذا ليس تحنيطًا كما عادة المصريّين لكنّه تكريم مشابه لمن يسكب الطيب على رأسه خلال مأدبة. طيب الناردين كان الأكثر شيوعًا واستعمالاً وهو الذي سكبته المجدليّة على المسيح ما دفعه على القول: «طيّبت جسدي استعدادًا لدفني». والمرّ كان شائعًا أيضًا والعود المستورد من الهند، وليس العود المستعمل في الأدوية، وكلاهما طيّب الرائحة. القراءة الحرفيّة لإنجيل يوحنّا قد توحي بأنّ الجسد لُفّ بكمّيّة كبيرة من هذه الأطياب. الإنجيليّ يقول إنّ نيقوديموس ابتاع مزيج مرّ وعود «نحو مئة رطل» لدفن المسيح؛ ولكن يجب أن ندرك أنّ مقدارًا كهذا يوضع في القبر بجانب الجسد.

في السابق كان الميت يُلبس ثيابه ويُدفن مع ما يميّز رتبته: الملك مع تاجه، الجنديّ مع سيفه، النبيّ مع ردائه، وهذه العادة مذكورة في مقاطع كثيرة في الكتاب المقدّس. لكنّ ذلك ما عاد متّبعًا زمن المسيح. من وصف الإنجيليّ لإقامة لعازر ودفن الربّ نرى أنّهم كانوا يستعملون الكفن للجسد والمنديل للوجه، أمّا اليدان والرجلان فتربطان بالكتّان. ومن ثمّ يسجّى في العلّيّة حيث يودّعه أهله وأقاربه وأصدقاؤه.

يكون الدفن عادةً بعد مضي ثماني ساعات على الوفاة، إذ يجب ألاّ يتأخر الدفن في الجوّ الحارّ. نادرًا ما كانت تستعمل النعوش؛ إلاّ أنّنا نقرأ في مخطوط «كيتّين» أنّه خلال حصار تيطس لأورشليم مرّر رباي بن زكاي خلال صفوف الرومان مغلقًا عليه في نعش، ما يعني أنّ النعوش لم تكن نادرة كثيرًا. في العادة كان الميت يوضع على حمّالة حيث ينظر إليه المارّة؛ الظاهر أنّ جنازة ابن أرملة ناين الذي رآه يسوع كانت هكذا. وكانوا يضعون علامةً على النعش تدلّ على حالة

الميت: ريشةً أو مفتاحًا للأعزب مثلاً وخمارًا على العذراء. الأقارب والأصدقاء يتناوبون على حمل النعش تعبيرًا عن عاطفتهم. الرضّع كانوا يحملون على أيدي الأهل.

النساء يتقدّمن النعش، لأنّ «كما جلبت المرأة الموت للعالم عليها أن تقود ضحايا الموت إلى القبر» كما كانوا يقولون. وبغضّ النظر عن مقدار الحزن فالطقوس عادة ما تكون صاخبة. لم يكن من اللائق الحزن بصمت بل كانوا ينتحبون عاليًا ويذرّون التراب على رؤوسهم: حتّى إنّ بعضهم كانوا يستأجرون نوّاحين محترفين، ويعود التقليد إلى زمن النبيّ إرميا، ينوحون طيلة المسيرة، ونافخو الأبواق يعزفون ألحانًا حزينة. وكان الأفقر بينهم، بحكم العادة، ملزمًا بأن يستأجر عازفي مزمار ونوّاحًا واحدًا في حال موت الزوجة. كان من الواجب أيضًا تمزيق الثياب، وقد حدّد كتاب التلمود مقدار التمزيق.

لم تكن هذه مراسم دينيّة بحقّ. ولا توجّد خدمة صلاة تماثل الصلوات والابتهالات المسيحيّة الخاصّة بالراقدين. وهذا لا يعني أنّ أقارب المتوفّى لم يكونوا يصلّون له خلال مسيرة الدفن. في الأدب المنحول، فقط في النسخ العربيّة والقبطيّة التي تعود إلى القرن الرابع، من كتاب عنوانه «تاريخ يوسف النجّار» يشير الكاتب إلى نصّ صلاة جميل قاله يسوع على جسد أبيه بالتبنّي: «يا إله كلّ رحمة، الأعين الناظرة والأذن السامعة، إسمع تضرّعي من أجل يوسف الشيخ وأرسل رئيس ملائكتك ميخائيل ورسول النور جبرائيل وحشد جيوش ملائكتك وجوقاتهم، ليسيروا مع روح يوسف أبي، حتّى يأتوا به إليك». صلاة آراميّة أخرى تعود إلى زمن المسيح، دعاء عند وفاة اليهود، ما يزال الأيتام يتلونها إلى زمننا هذا. في هذه الصلاة نجد الخصائص المميِّزة

للإيمان اليهوديّ، أبياتها تمجّد سيّد الحياة، تبارك اسمه وتعلّيه، وتقتصر على هذه الجملة: «لتقبل صلوات وتضرّعات كلّ شعب إسرائيل أمام ابيهم الذي في السماء». صلاة تماثل الصلاة الربّيّة المسيحيّة إذ يقف الكاهن أمام الراحل متشفّعًا.

على عكس الرومان، لم يكن اليهود يحرقون موتاهم؛ كان عندهم رعب من الحرق، واعتبروه ضدّ ناموس الطبيعة؛ وللمؤمنين بقيامة الأجساد فإنّ الحرق ينفيها. لذلك فعقوبة الحرق كانت تعتبر رهيبة، وإن لم تمارس على الأحياء، بل اعتبرت قصاصًا إضافيًّا يلي الإعدام. الموتى كانوا يدفنون؛ لكن لم تكن هناك مدافن حقيقيّة. العادة أوجدت مقابر عدّة بجانب بعضها البعض في المكان الواحد، ودائمًا بحسب أوامر الشريعة، خمسون ذراعًا بعيدًا عن أيّ مسكن: وادي يوشافاط بالقرب من أورشليم، مثلاً، كان ممتلئًا بتلك المقابر. المقابر الرسميّة الوحيدة كانت للمعوزين والغرباء. يكون اليهوديّ فقيرًا إن لم يكن بمقدوره بناء قبر له؛ أمّا الأغنياء فكانوا يبتنون قبورهم على أرض مختارة أو في أرضهم الخاصّة.

وإذ تنتهي مراسم الدفن كانت العائلة تجتمع حول المائدة. كان ذلك «خبز النوح» الذي تكلّم عليه حزقيال وهوشع. كانت لهم عادة شرب الخمر كما في وقت الفصح. وحدّد مجلس السنهدريم بحكمة عدد الكؤوس الأقصى المسموح بشربها بعد الإراقة التي أعقبت دفن أحد المعلّمين المرموقين وانتهت باحتفال صاخب. بعد الدفن، كان الأصحاب، بالأخصّ الذين لم يتمكّنوا من المشاركة في الدفن يأتون للتعزية، ونصّت مقالة «بابا باثرا» على أنّ من الواجب في حالة كهنه، أن ينهضوا سبع مرّات من مقاعدهم وينحنوا سبعًا لأهل الراقد.

كانت فترة الحداد تدوم ثلاثين يومًا: في الأيّام الثلاثة الأولى لم يكونوا يقومون بأيّ عمل ولا تردّ التحيّات في الشارع. خلال هذه الثلاثين لم يكونوا يلبسون التعاويذ عند الصلاة، والمتزمِّتون لم يكونوا يحلقون لحاهم أو يغتسلون، كانوا يلبسون ثيابًا قذرة أو حتّى مسحًا من وبر الجمال الذي ما يزال يرمز إلى الحزن. النساء المؤمنات كنَّ يلبسن المسح حتّى وفاتهن. وفي أوقات محدّدة في كلّ عام اعتاد المحزونون زيارة القبر[٤٨].

[48] Daily Life in the Time of Jesus, An authentic reconstruction of Biblical Palestine and the day–to–day lives and customs of its people. Part II- 12. When the Bird-Song Dies Away. Author: Henri, Daniel-Rops.

«المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور».

(طروباريّة القيامة)

الموت قبل المسيح وبعده - أنخاف الموت بعد ؟

أحد أبرز لاهوتيّي القرن الماضي، ألكسندر شميمن، كتب:«بكى يسوع عند قبر صاحبه وبذلك كشف عن صراعه مع الموت، رفضه له والمصالحة معه. فجأةً يبطل الموت أن يكون مألوفًا وحقيقةً طبيعيّةً، يظهر كشيء غريب وغير مألوف، مخيف ومنحرف ويعلن عدوًّا: «آخر عدوّ يبطل هو الموت» (١كور ١٥: ٢٦). السؤال الأعمق للإيمان المسيحيّ يجب أن يكون: كيف أتى الموت ومن أين ولماذا أصبح أقوى من الحياة؟ تجيب المسيحيّة بقوّة وإيجاز وتأكيد، هذا ما يقوله الكتاب: «بالخطيئة اجتاز الموت للعالم».

«لا تسعوا وراء الموت بما ترتكبون من أخطاء في حياتكم ولا تجلبوا على أنفسكم الهلاك بأعمال أيديكم. فالله لم يصنع الموت، لأنّ هلاك الأحياء لا يسرّه. خلق كلّ شيء للبقاء وجعله في هذا العالم سليمًا خاليًا من السمّ القاتل، فلا تكون الأرض مملكةً للموت، لأنّ التقوى لا تموت. لكنّ الأشرار جلبوا على أنفسهم الموت بأعمالهم وأقوالهم، حسبوا الموت حليفًا لهم وعاهدوه فصاروا إلى الفناء، فكان هو النصيب الذي يستحقّون» (حك ١: ١٢-١٦). هذا يعني أنّ في هذا العالم، في هذه الخليقة قوّة ليست مستمدّة من الله، لم يُرِدها، لم يخلقها، تضادّه وتقاومه، تعانده وهي مستقلّة عنه[٤٩].

عادة المدافن وشواهد القبور ليست من المسيحيّة، لأنّ الإعلان المسيحيّ ليس عن ذوبان مادّة الجسد في الطبيعة، بل عن القيامة في

[49] Schmemann, Alexander, O Death where is thy sting? Chapter 3, The Origin of Death. St Vladimir's Seminary Press.

ملئها وتمامها، محقّقة في المحبّة[٥٠].

بالطبع سيستمرّ البشر بالموت كما في السابق وسيستمرّ الفراق بالحزن والألم. لكن في وسط ذلك العالم اشتعل نور الإيمان ويستمرّ بالاشتعال. إنّه ليس اعتقادًا بأنّه في مكان ما، ما وراء حدود هذا العالم سنستمرّ بالوجود، هذا الاعتقاد كان سائدًا قبل المسيح. لكن بالحقيقة فإنّ العالم ذاته والحياة ذاتها قد نالا مجدًّا هدفًا ومعنى، الزمن عينه شُحن بالنور وصرنا نحيا في الأبديّة الآن وهنا. الأبديّة، أوّلاً، هي معرفة الله المتاحة لنا بالمسيح. بادت الوحدة وانتفى الخوف وانجلت الظلمة. أنا معكم، يقول المسيح، معكم الآن وكلّ آن، بالمحبّة الكاملة والمعرفة التامّة وكلّ القدرة. الأبديّة هي وصيّة المحبّة التي تركها لنا المسيح. واسم هذه الأبديّة «الفرح والسلام في الروح القدس» (رو ١٤: ١٧) وهذا الفرح لن ينزع منّا (يو ١٦: ٢٢)[٥١].

المسيحيّة ليست المصالحة مع الموت بل إشهاره، تُشهره لأنّها تعلن الحياة، والمسيح هو الحياة. وحدها المسيحيّة تجهر بأنّ الموت استثنائيّ وفظيع حقًّا. الكنيسة هي المدخل لحياة القيامة بالمسيح: إنّها مشاركة بالحياة الأبديّة، «فرح وسلام بالروح القدس». وانتظار «اليوم الذي لا يعروه مساء» في الملكوت؛ لا «لعالم آخر»، بل لتحقيق كلّ شيء وللحياة بالمسيح[٥٢].

الأب المفجوع الذي ذكرته سابقًا، وفي عظة الأحّد، تذكار اليوم

---

[50] Schmemann, Alexander, O Death where is thy sting? Chapter 4, The Resurrection of the body. St Vladimir's Seminary Press.

[51] Schmemann, Alexander, O Death where is thy sting? Chapter 9, The Religion of Salvation. St Vladimir's Seminary Press.

[52] Schmemann, Alexander. O Death where is thy sting? Appendix, Trampling down death by death. St Vladimir's Seminary Press.

الثالث لوفاة بكره، قال:

«أشكر ربّي يسوع المسيح الذي عزّانا بما لا يوصف، عزّانا هو بنفسه أوّلاً، بكلمته، بالإنجيل وعزّانا بمحبّتكم ثانيةً.

«يا سيّد لو كنت ههنا لما مات أخي لعازر، بكى يسوع، كم كان يحبّه».

ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى على أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟

أأقول كمرثا: يا سيّد لو كنت معنا لما مات ابني، يسوع قال لمرثا: أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي وإن مات فسيحيا - نعم يا ربّ أنا أؤمن بهذا».

يقول بولس الرسول: «لم تصبكم تجربة إلاّ بشريّة. ولكنّ الله أمين الذي لا يدعكم تجرّبون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١كو ١٠: ١٣)، فنحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى لأنّ التي ترى وقتيّة، وأمّا التي لا تُرى فأبديّة (٢كو ٤: ١٨). فنحن مكتئبون في كلّ شيء لكن غير متضايقين، متحيّرون لكن غير يائسين، مضطهدون لكن غير متروكين، مطروحون لكن غير هالكين (٢كو ٤: ٨-٩).

فنحن على الأرض حاملو الصليب، وكما يقول المزمور ٩٠ في خدمة صلاة الساعة الأولى: «الإنسان أيّامه سبعون سنة ومع القوّة فثمانون كلّها شقاء وتعب».

يقول الرسول يعقوب في رسالته: «احسبوه كلّ فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوّعة عالمين أنّ امتحان إيمانكم ينشئ صبرًا (يع ١: ٢). «ولا يقل أحد إذا جرّب إنّي أجرّب من الله لأنّ الله غير

مجرّب بالشرور وهو لا يجرّب أحدًا» (يع ١: ١٢).

يقول الربّ «أنا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» والربّ إله أحياء وليس إله أموات، فالراقدون أين هم؟

تُقسم الكنيسة إلى قسمين: الكنيسة المنظورة وهي المجاهدة، والكنيسة غير المنظورة وهي الظافرة، أين يلتقيان ومتى وكيف؟

الأسبوع بالنسبة إلى زمننا سبعة أيّام تبتدئ باليوم الأوّل (الأحد) وتنتهي باليوم السابع (السبت)، وهي ذات خط مستقيم أفقيّ تتكرّر أسبوعيًّا. أمّا بالنسبة إلى الكنيسة فالأسبوع هو دائرة وليس خطًّا مستقيمًا. فالدائرة لا بدء ولا نهاية لها تمامًا كيسوع المسيح الذي لا بدء ولا نهاية له. اليوم الأول (الأحد) هو كذلك اليوم الثامن وهو يوم الربّ. في القدّاس الإلهيّ نحن نصبح خارج الزمن، إذ لا وجود لليوم الثامن في الزمن، لنلاقي الربّ. وحول الخروف المذبوح (رؤيا) نحن المجاهدين نلتقي مع الظافرين. وهكذا يتوحّد قسما الكنيسة حول يسوع وبه. الكاهن يضع الحمل في الصينيّة وحوله والدة الإله من جهة والقدّيسون من جهة والأحياء والأموات من جهة أخرى عند تحضير الذبيحة الإلهيّة. فنحن والمنتقلون عنّا نصبح على مائدة واحدة هي مائدة الربّ.

فالقدّاس الإلهيّ هو مكان الحزانى وليس البيت. فلا نحزن كمن لا رجاء لهم.

«فيا ربّ القوّات كن معنا لأنّه ليس لنا في الأحزان معين سواك، يا ربّ القوّات ارحمنا» (نهاية العظة).

في هذا السياق يقول الأب يوحنّا كرونشتادت: «نحن نحيا معًا (الراقدون والقدّيسون)، في منزل الآب السماويّ، ولكن في أقسام

مختلفة. نحن نحيا في القسم الأرضيّ أمّا هم ففي النصف السماويّ؛ لكنّنا نتواصل معهم وهم معنا»[٥٣].

المتروبوليت كاليستوس وير يقول: «آخر كلمات الفيلسوف المتديِّن الأمير أيفان تروتسكوي وهو يحتضر كانت: «الأبواب الملوكيّة تُفتح! والليتورجيا العظيمة على وشك البدء». بالنسبة إليه لم يكن الموت إغلاق الأبواب بل فتحها، لم يكن نهايةً بل بدءًا. وكما الأوائل، اعتبر موته هو يوم ولادته».

ويتابع المتروبوليت وير: «لننظر إلى وجودنا ككتاب. معظم الناس يعتبرون الحياة الحاضرة أنّها نصّ الكتاب، القصّة الرئيسة ويرون الحياة المستقبلة كخاتمته. أمّا النظرة المسيحيّة الأصيلة فعكسها. في الحقيقة حياتنا الحاضرة ليست أكثر من المقدّمة، افتتاح، بينما حياتنا المستقبلة هي النصّ الرئيس. لحظة الموت لا تشير إلى نهاية الكتاب إنّما إلى ابتداء الفصل الأوّل».

ويسهب في هذه النقطة فيزيد أنّ لا مناص من الموت وأنّه حقيقة مؤكّدة، وسرّ، وعلينا أن ننظر إليه بمشاعر متضاربة، بواقعيّة رصينة من جانب، ومن جانب آخر برعب وعجب في الوقت ذاته.

بالنسبة إليه الموت حدث مثبت لا مفرّ منه يجب أن يتطلّع إليه، إلى ذلك المجهول العظيم، كلّ بشريّ[٥٤].

الموت أقرب إلينا ممّا نظنّ؛ يقول الرسول بولس «إنّي أموت كلّ يوم» (١كور ١٥: ٣١). الموت والحياة ليسا متضادّين. الحياة البشريّة بكاملها مزيج من الموت والقيامة: «كمائتين وها نحن نحيا» (٢كور ٦:

---

[53] Father John of Kronstadt, Spiritual Counsels. Select passages from My Life in Christ. St Vladimir's Seminary Press.

[54] Bishop Callistus Ware, The Inner Kingdom. The collected works, Vol. 1. Chapter 2.

٩). مسيرتنا الأرضيّة فصح متواصل، عبور في الموت إلى حياة جديدة. النوم ليلاً دلالة موت ونهوضنا صباحًا كقيامة من بين الأموات، كأنّنا نخلق من جديد. نحن لا نخاف النوم ليليًّا، أفلا تكون لنا الثقة ذاتها عند رقادنا الأخير؟ ألا نتوقّع نهوضنا ثانيةً مخلوقين من جديد في الأبديّة؟

موت من نوع آخر نواجهه جميعًا في مرحلة ما، نقع في تجربة الرفض إن كان في العمل إو في الحبّ أو في أيّ مجال آخر، قد نفقد عزيزًا، هذه المحن كلّها تتضمّن أيضًا موتًا في قلب من زال حيًّا. نحسّ بأنّ جزءًا منّا فقد. إلاّ أنّنا عندما نواجه داخليًّا فقد عزيز ونتقبّله فإنّنا نحيا حقيقةً أكثر ممّا كُنّا عليه من قبل. فموت الإيمان كارثيّ كذلك. في كلّ تلك الأحوال ينقلب الموت من مهلك إلى خلاّق. من الموت تأتي القيامة.

نصّ خدمة ليتورجيا القدّيس باسيليوس تقول: موت المسيح «موت مُحيي».

من المناسب أن نرى أيضًا كيف واجه أناس العهد القديم الموت. جدُّنا قد دين بالموت الأكيد (تك ٢: ١٧) وانفصال النفس عن الجسد دعي موتًا و«مثوى الأموات جحيمًا». قال يعقوب لأبنائه عند رجوعهم من مصر بدون شمعون: «لن أعطيكم بنجامين... فإن أصابه أذى في الطّريق التي تسلكونها أنزلتم شيبتي بحسرة إلى عالم الأموات» (تك ٤٢: ٣٦-٣٨). النبيّ إشعيه يقول أيضًا: «فوسّعت الهاوية جوفها وفتحت فمها بلا حدّ، لتبتلع أشراف أورشليم وعامّتها وضجيج مباهجها» (إش ٥: ١٤) لاستقبال الأموات وابتلاعهم بلا توقّف. يحمد النبيّ والملك داود الله لأنّه أنقذ نفسه من الهاوية السفلى (مز ٨٦: ١٣).

أيضًا نلمس الخوف من الموت قبل المسيح في مواقف أبرار

العهد القديم، لم يتوقّف الخوف من الموت على الأئمة بل تعدّاه إلى البررة الثابتين أمام الله. قبل المسيح واجه الجميع الموت برعب وخشية. هرب موسى من مصر إلى الصحراء خوفًا من الموت؛ من أن يقتل. البارّ إبراهيم والثابت في الإيمان جَبُنَ خوفًا من الموت وادّعى أمام المصريّين أنّ سارة أخته، مسلّمها إلى العار بالزنى (تك ١٢: ١١-١٣). خاف يعقوب أخاه عيسو جدًّا وتضرّع إلى الله لينجّيه من يده (تك ٣٢: ١١). إيليه النبيّ البارّ الذي بصلواته أغلق السماء ثمّ فتحها؛ الذي أنزل نارًا من السماء، صار طريدًا هاربًا خائفًا من الموت (١مل ١٩: ٢-٣).

وحتّى أيّوب سأل الله أن يريحه من ألمه غير المحتمل قبل أن يرميه في العتمة: «أيّامي قليلة فأشفق عليّ ودعني فأنتعش قليلاً، قبل أن أمضي ولا أعود إلى أرض عتمة وظلال موت، حيث السواد حالك ولا نظام، والضّياء كالظلام الدامس» (أي ١٠: ٢٠-٢٢). كذلك حزقيه الملك عندما مرض وشارف على الموت صلّى فأزاده الله خمس عشرة سنة، فكتب: «وفي تلك الأيّام مرض حزقيه مرضًا أشرف به على الموت، فجاءه إشعيه بن آموص النبيّ وقال له يقول الربّ ضع وصيّتك لأهل بيتك لأنّك تموت ولا شفاء لك. فأدار حزقيه وجهه إلى الحائط وصلّى إلى الربّ وقال أذكر يا ربّ كيف سرت أمامك بالحقّ وسلامة القلب، وكيف عملت الخير بحسب مشيئتك. وبكى حزقيه بكاءً مرًّا. فقال الربّ لإشعيه اذهب وقل لحزقيه يقول لك الربّ إله داود أبيك سمعت صلاتك ورأيت دموعك، وها أنا أطيل أيّامك خمس عشرة سنة وأنقذك من يد ملك أشور وأحمي هذه المدينة. والعلامة على أنّي أحقّق ما أتكلّم به هو أنّي أردّ الظلّ على الدرجات التي بناها الملك

آحاز عشر درجات إلى الوراء. فرجعت الشمس بظلّها عشر درجات كانت نزلتها. وهذا ما كتبه حزقيه بعدما مرض وشفي من مرضه. قلت في عزّ أيّامي أنا ذاهب إلى عالم الأموات لأنّ الربّ حرمني بقيّة أيّامي. قلت لن أرى الربّ في أرض الأحياء، ولن أنظر البشر بعد عند سكّان الفانية. انقلع مسكني وانتقل عنّي كخيمة الراعي وكالحائك طويت حياتي وقطعتها من النول، نهارًا وليلاً تفنيني، وأصرخ حتّى الصباح. كالأسد يهشّم عظامي ونهارًا وليلاً تفنيني» (إش ٣٨: ١-١٣).

كانوا يلتزمون بالندب والنوح لأنّ الموت كان مخيفًا. وقع يوسف على وجه أبيه وبكاه وقبّله. لم يتوقّف النوح عند ذلك بل ارتحل يوسف إلى بلاد كنعان ليدفنه وتبعه خدم فرعون (تك ٥٠: ١-١٠). ناح الإسرائيليّون شهرًا وهم بعد في الصحراء على فقد موسى ولم يعلم أحد أين قبره (تث ٣٤: ٦-٨). وكذلك ناحوا نوحًا عظيمًا عند موت صموئيل النبيّ (١صم ٢٥: ١).

كلّ ذلك كان قائمًا لأنّ شوكة الموت لم تكن قد كسرت بعد. قوّته وسلطانه لم يبادا بعد. كانوا ينوحون على الراقدين وكأنّهم فقدوا للأبد؛ وبأنّهم لن يلتقوهم ثانيةً. كان العالم يعيش بخوف متواصل من الموت.

بعد التجسّد الإلهيّ، الصلب ونزول الربّ إلى الجحيم، القيامة والصعود، أبيد الموت إلى درجة أنّه بات يحمل من الموت اسمه فقط. وحتّى الاسم حُرِمه. من ذلك الحين ما عدنا ندعوه موتًا بل «نومًا» و«رقادًا». بالنسبة إلى شعب العهد القديم كلمات المسيح عن صديقه لعازر «صديقنا لعازر قد رقد وأنا أذهب لأوقظه»، لم يقل إنّ لعازر قد مات. كلمة «نوم» جهلها الرسل والدليل جوابهم ليسوع. «ثمّ قال لهم

حبيبنا لعازر نائم، وأنا ذاهب لأوقظه. فقال له التلاميذ إذا كان نائمًا يا سيّد، فسيشفى. وكان يسوع يعني نومة الموت، فظنّوا أنّه يعني راحة النوم» (يو ١١: ١١-١٣). استعمل يسوع التعبير ذاته عند وصفه موت ابنة يايروس، ضحكوا منه، لكنّه قال «لا تبكوا إنّها لم تمت بل هي نائمة». فسخروا منه لعلمهم بأنّها قد ماتت» (لو ٨: ٥٢-٥٣).

لفظة «موت» كانت مخيفة أمّا «الرقاد» فلطيف لأنّه يحمل الرجاء بالقيامة. يصف الرسول بولس الموت بالرقاد في رسالته إلى أهل تسالونيكي: «لا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا مصير الراقدين لئلاّ تحزنوا كسائر الذين لا رجاء لهم. فإن كنّا نؤمن بأنّ يسوع مات ثمّ قام، فكذلك نؤمن بأنّ الذين رقدوا في يسوع، سينقلهم الله إليه مع يسوع. ونقول لكم ما قاله الربّ، وهو أنّنا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الربّ لن نتقدّم الذين رقدوا» (١تس ٤: ١٣-١٥). حتّى مكان الدفن يدعى مقبرةً، مكان الرقاد.

كتب الذهبيّ الفم: «إذ تحملون أمواتكم إلى هذا المكان فإنّكم لا تحملونهم إلى «الموت» بل إلى «الرقاد». تضعونهم في مقبرة، وهي مكان للنوم. لا تنسوا أنّكم تحضرونهم إلى هنا « فبعد موت المسيح كُسرت شوكة الموت». لذلك فعندكم علاج كاف ضدّ الحزن واليأس، ومن بين أشياء أخرى حتّى «اسم المكان تغيّر».

قرأنا أعلاه كم خاف شعب العهد القديم الموت، فلنسمع الآن كيف يتكلّم الرسول بولس عن موته. ما عاد الموت مخيفًا أبدًا، على العكس، تمنّى الرسول الموت. فقد كتب: «وأنا في حيرة بين أمرين أرغب في أن أترك هذه الحياة لأكون مع المسيح، وهذا هو الأفضل» (في ١: ٢٣)، وأفضل من الحياة بما لا يُقاس. قبل المسيح كان الموت

يُهبط الإنسان إلى الجحيم؛ بينما أصبح الآن يقوده إلى المسيح. لاحظوا تضادّ المواقف بين يعقوب وبولس. لاحظوا أيضًا هزء المرأة وابنها الشهيدين بالموت وهما يسرعان نحوه بفرح متلهّفين للانتقال إلى الحياة الأخرى.

بينما جلب الموت في العهد القديم النوح والحزن والدموع المرّة، تتوجّه الآن صلوات الكنيسة والمزامير إلى الله. رغم ألحانها الحزينة إلاّ أنّها تحرّك فينا الشجاعة والرجاء للراقدين. بالموت نتحوّل من الفساد إلى حياة عظمى، من الوقتيّ إلى الأزليّ ومن الأرضيّ إلى السماويّ. مِمَّ نخاف وقد غلب الشيطان؟

يكتب القدّيس أثناسيوس الكبير: «أبيد الموت وانتصر الصليب عليه، باد سلطانه وصار هو الميت. ففي القديم، قبل مجيء المخلّص الإلهيّ، أرعب الموت حتّى الأبرار، والكلّ ناحوا على أمواتهم وكأنّهم فنوا. أمّا الآن وقد أقام المخلّص جسده، ما عاد الموت مخيفًا؛ يدوسه المؤمنون جميعًا وكأنّه لا شيء، ويختارون الموت بدل إنكار إيمانهم بالمسيح. لأنّهم يوقنون بأنّهم لا يفنون بالموت بل يحيون ويلبسون عدم الفساد بالقيامة. والشيطان الذي كان يتهلّل بالموت بغضًا أصبح هو الميت بعدما تحرّرنا من آلامه. برهان ذلك، قبل الإيمان بالمسيح، نظروا إلى الموت نظرة رعب وجبنوا أمامه. لكن لمّا انتقلوا إلى الإيمان بالمسيح وتعاليمه، احتقروا الموت بشدّة لدرجة رغبتهم به، وشهدوا للقيامة التي حقّقها المخلّص بغلبته عليه. اليافعون أسرعوا إليه، لا الذكور وحدهم بل الإناث أيضًا يتدرّبون على ضبط أنفسهم ضدّه. وهن لدرجة أنّ النسوة اللواتي خدعهنّ قديمًا هزئن به كميت وكمشلول»[55].

[55] St. Athanasios the Great, On the Incarnation of the Word. 27(1-3). The Early Church Fathers.

وماذا أقول عن الشهداء إستفانوس أوّلهم وإغناطيوس المتوشّح بالله وغيرهم كثر سلكوا درب الشهادة بشجاعة ومن دون وجل.

نجد في العهد القديم أيضًا أنّ الشفاء من الألم هو أحد أعمال الله، وأنّ البشر سيخلصون في أيّام المسيّا.

كلّ البشر أقاموا رتب دفن وما زالوا: هل بالغ اليهود به؟ ألم يكن النوح والعويل المرافق للميت زيفًا وتظاهرًا؟ «دع الموتى يدفنون موتاهم»، جواب المسيح الشهير للتلميذ الذي طلب الإذن ليدفن أباه أوّلاً ومن ثمّ يتبعه، يوضح أنّه عنى أنّ الحياة ما وراء الموت. الرسول بولس قال: «ولا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا مصير الراقدين لئلاّ تحزنوا كسائر الذين لا رجاء لهم» (١تس ٤: ١٣)[٥٦].

أحد الحجّاج قال: في زيارتي القدس شاهدت قبرين فارغين. أوّلاً، ركعت أمام قبر المسيح الخالي وصلّيت. ولأنّ قبره فارغ فقبري وقبرك سيكونان فارغين يوم يعود ثانيةً ليدين الأحياء والأموات. «المسيح قام ولا ميت في قبر» كما يقول الذهبيّ الفم.

ومن ثمّ زرت قبرًا فارغًا آخر بينما أنا في القدس، وهو قبر والدة الإله. أيقونة رقاد العذراء تظهر المسيح حاملاً نفسها إلى الفردوس. قبر المسيح الفارغ قد أفرغ أيضًا قبر أمّه تمامًا كما سيفرغ قبرك وقبري يومًا.

أيقونة القيامة تعبّر جليًّا عن كلّ ذلك بإظهارها الربّ الناهض، بعدما كسّر أبواب الجحيم وأمحالها، ممسكًا بيد آدم وحوّاء يقودهما مع أبنائه المؤمنين من القبر إلى الحياة الأبديّة.

[56] Daily Life in the Time of Jesus, An authentic reconstruction of Biblical Palestine and the day–to–day lives and customs of its people. Part II- 12. When the Bird-Song Dies Away. Author: Henri, Daniel-Rops

قبر أحبّائك فارغ. «لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات؟» قبرك سيكون فارغًا يومًا ما! لِمَ؟ لأنّ «المسيح قام من بين الأموات وأمات الموت بموته ووهب الحياة للذين في القبور».

سأل أحدهم مسيحيًّا: «كيف بإمكانك أن تواجه الحياة بظفر؟»

أجابه: «بالصلاة».

«ماذا تعني بالصلاة؟»

أجابه المسيحيّ: «منذ عهد بعيد كنت مرتبكًا بأمور كثيرة إلى حدِّ المرض. صلّيت إلى الربّ وأخيرًا أجابني. هذا ما قاله، «اسمع يا بني، ما من أمر لا يمكننا أن نعالجه معًا!» نحن، الله وأنا. «احملوا نيري... فنيري هيِّن وحملي خفيف» (متّى ١١: ٢٩-٣٠). النير، لمن لا يعرف، قد أعدّ لاثنين: أنت إلى جانب ويسوع إلى الجانب الآخر. والنتيجة، حمل أخفّ[٥٧].

يقول المغبوط أوغسطين: «ورأيت مدينةً عظيمةً، أورشليم جديدة، نازلة من عند الله من السماء، مهيّأة كعروس مزيّنة لعريسها. وسمعت صوتًا عظيمًا صادرًا عن العرش قائلاً، أبصر، خيمة الله بين البشر وسيسكن بينهم وسيكونون شعبه والله نفسه سيكون معهم. وسيمسح الله كلّ دمعة من عيونهم؛ ولن يسود الموت من بعد، ولا حزن أو بكاء ولا ألم، فالأمور السابقة قد زالت. والمستوي على العرش قال، انظر، سأعمل كلّ شيء جديدًا». هذه المدينة نازلة من السماء، لأنّ الله بالنعمة السماويّة قد صاغها. وكما يقول لها في إشعيه «أنا هو الربّ الذي أبدعك». بالفعل نزلت بدءًا من السماء، بما أنّ مواطنيها ينمون في مسار هذا العالم بنعمة الله المنحدرة من العلاء،

[57] Surviving the Loss of a Beloved One. Second printing. Anthony Coniaris. Light and Life Publishing Company.1992.

بجرن التجديد بالروح القدس المرسل من السماء. لكن بدينونة الله الأخيرة، والتي سيقيمها بالعدل بابنه يسوع المسيح، عندها وبنعمة الله سيتجلّى ويجتاح مجد جديد يزيل كلّ أثر لما هو قديم؛ وحتّى أجسادنا ستتحوّل من فسادها ومواتها القديم إلى عدم فساد وخلود. أن نعزو هذا الوعد إلى الزمن الحاضر، حيث يملك القدّيسون مع ملكهم ألف عام، يبدو وقحًا جدًّا، في حين أنّ هذا القول واضح: «سيمسح الله كلّ دمعة من عيونهم؛ ولن يسود الموت من بعد، ولا حزن أو بكاء، ولا ألم». من هو التافه والعمي المماحك، المتهوّر كفايةً ليؤكّد في وسط مصائب هذه الفانية، بأنّ شعب الله، ولو قديس واحد، يعيش أو عاش أو سيعيش لم يختبر الألم أو الدموع، الحقيقة هي أنّ الأقدس والأكثر امتلاءً بالشوق المقدّس أغزر دموعًا في تضرّعاته؟ أليست هذه كلمات مواطن أورشليم السماويّة: «دموعي صارت طعامي نهارًا وليلاً»؛ وأيضًا «في كلّ ليلة أبلّ فراشي بدموعي» وأيضًا «تنهّدي لم يخف عنك»؟ أليسوا كلّهم أبناء الله، يئنّون، تعبون، لا يتمنّون العري بل الكسوة، أن تبتلع الحياة الموت؟»[58].

إن كانت الحياة نهرًا فلها ضفّتان. الواحد يعرف ضفّةً واحدةً فقط. نرغب بتجاهلها أو ألاّ نفكّر فيها بتاتًا. بناءً عل ذلك يصبح لغز الموت أكثر غموضًا وإبهامًا لأنّنا نقف على الجانب الواحد من القبر. العالم الذي يقف على جانب القبر هذا، أي العالم الحاضر، هو «عالم فانٍ، مكان الموتى». أمّا مكان الأحياء فهو عالم ما وراء القبر حيث لا ليل ولا نوم يسودان، وهما «رمز الموت».

يسوع الإنسان مرّ بأصدقائه مرتا ومريم ولعازر وهو في طريقه

[58] St Augustine; The City of God Book XX; Chapter 17. Of The Endless Glory of the Church. The Early Church Fathers.

إلى آلام الصليب، في طريقه إلى أورشليم، توقّف ليرى أصدقاءه ويفتقدهم فيفتقدونه بمحبّتهم. ولكنّ صلاة الكنيسة إذ تحمل النصّ الإنجيليّ في عبادتها، تشير إلى أنّ حدثي قيامة لعازر ودخول السيّد إلى أورشليم هما مقدّمتا الصليب، بمعنى أنّ الصليب والقبر والقيامة تظهر لنا قوّة المحبّة التي أحبّنا بها الله، إذ بعث حياته فينا واحتمل موته فداء عنّا.

«عند الربّ السيِّد منافذ من الموت».

(مز٦٨: ٢٠)

نزاع الموت

خطبة المغبوط أوغسطين هذه كانت تعزيةً للنفس مقابل الحياة الفانية وحياة الموت الجسديّ، وطبعت خطبة دفن المؤلّف، بحقّ، إذا احترمنا الوقت أو المحتوى. ألقاها قبيل موته بقليل، وكأنّه بعمله هذا أنجز كلّ شيء ولم يتبقّ له سوى أن يرقد؛ والموضوع هو عن الموت، مناسبة كلّ رتب الدفن وموضوعها. كلمات محتضر، إن اختصّت بنا تترك فينا عادةً أبلغ الانطباعات، بما أنّها قيلت بإحساس كبير وبدون تصنّع. من يهتم بأنّ يعرف خطر الموت ونفعه؟ الموت عدوّ كلّ إنسان، ويبيِّت الشرّ للجميع، إلاّ أنّه مناسبة جيّدة للكثيرين. يجب أن نكون مستعدّين حتّى لا يبدو الموت فظيعًا، في أيّ وقت حلّ، ولا الحياة مملّة مهما طالت.

وبهذا المعنى، مسائل الموت، نجاة في الموت؛ لا لأنّ الله سينجّينا من الموت بل لأنّه سيهتمّ بنا في ساعة موتنا، مهما كانت طريقة انتقالنا. وفي هذا المعنى وقبول الكلام، فالإطار الطبيعيّ والقرينة تحكم علينا. وفي الأخير حبكة هذا البناء، أنّ من هو إلهنا هو إله الخلاص كلّه، وينحصر في هذا القول: إلى هذا الإله السيّد تنتمي مسائل الموت؛ أي أنّ هذا الإله السيّد قد وحّد الطبيعتين ونسجهما في واحد، وبما أنّه إله وقد أقبل إلى هذا العالم بجسدنا، ليخلّصنا بهذه الوسيلة الوحيدة، لم يكن له هدف آخر في هذا العالم، ولا يقدر على أن يعود إلى سابق مجده سوى بالموت. وبهذا المعنى، مسألة الموت هذه هي خلاص بالموت، بموت هذا الإله، ربّنا يسوع المسيح. هذا ما قبله المغبوط أوغسطين

من أقوال ومن التصق به من جمهور. في هذه السطور إذًا سنعتبر بهذه الكلمات، أوّلاً كما يخلّص إله القوّة، الآب القدير عبيده من أنياب الموت؛ ومن ثمّ خلّصنا، إله الرحمة الابن المجيد، باتّخاذه على عاتقه قضيّة الموت هذه؛ ومن ثمّ بين هذين الاثنين، كإله التعزية، ينتشلنا الروح القدس من كلّ شدّة بتأثيره المبارك سلفًا بأنّ أيّ شكل من أشكال الموت المعدّ لنا سيكون مدخلنا إلى الحياة الخالدة. وهذه الاعتبارات الثلاثة: خلاصنا من الموت في الموت وبواسطة الموت، سيُقيم بوفرة كلّ مقوّمات الأسس، والدعائم، لمبنانا أي لجسدنا؛ أنّ من هو إلهنا هو إله الخلاص كلّه، ولهذا الإله السيّد تنتمي مسائل الموت.

كيف إذًا وهب الله هذه الأرض لأبناء البشر؟ وهبهم هذه الأرض لصنع تجهيزاتهم منها، لتكون قبورهم وأضرحتهم، ليعودوا وينحلّوا في الأرض، لكن لا ليتملّكوها. ليست لنا هنا مدينة باقية (عب ١٣: ١٤) كلاّ، ولا خيمة ولا ذوات أو أجساد تبقى. القدّيس إيرونيموس وصف تجوال العبرانيّين في القفر (خر ١٧: ١) بالمنازل؛ التعبير يفيد السفر، الارتحال. وحتّى أبناء الله لا منازل لهم بل ارتحال وغربة في هذه الحياة. بماذا وصف يعقوب حياته أمام فرعون؟ «سنوات غربتي» (تك ٤٧: ٩). والرسول بولس لم يُرد القول بأنّنا إذ نحن في الجسد فنحن أموات إنّما «ما دمنا مقيمين في الجسد نبقى مغتربين عن الربّ» (٢كور ٥: ٦): كان بإمكانه القول [إنّنا أموات، فالعالم بأسره فناء كنيسة كونيّة، مقبرتنا، وحياة أعظم الأشخاص وتحرّكاتهم كأنّها اهتزاز هياكل عظميّة بفعل زلزال. ما ندعوه حياةً إنّما هو أسبوع من الموت، سبعة أيّام، سبع مراحل في حياتنا نمضيها في الموت، نموت سبع مرّات؛ ومن بعدها النهاية. ولادتنا تموت في مرحلة طفولتنا، وهذه

تموت بفتوّتنا، ومرحلة الشباب وما يليها تموت بالتقدّم بالعمر، والهرم بالموت ينهي كلّ شيء. هذه كلّها، الشباب من بعد الطفولة، والهرم من بعد الشباب تولد هكذا، كما يولد الفينيق من رماد فينيق آخر، بل كما يبرز دبور أو أفعى من جيفة، أو كثعبان من روث. فتُوّتنا جائعة ومتعطّشة للآثام التي لم تعرفها طفولتنا؛ وشيخوختنا متأسّفة وغاضبة لأنّها لا تقدر على أن تمارس آثام شبابنا؛ وفي كلّ طريقنا ميتات عديدة، ومصائب مميتة تصاحب كلّ حالة ومرحلة من حياتنا، ويريح الموت أخيرًا المبتلين بها. في هذا السياق تمنّى أيّوب على الله لو أعفاه من الموت الأوّل، من الرحم، «لماذا أخرجتني من الرحم إذًا لمتّ ولم ترني عين وكنت كأنّني لم أكن، فأحمل من الرحم إلى القبر» (أي ١٠: ١٨-١٩). وكذلك لا العبرانيّين البَرمين في تذمُّرهم «ليت الربّ أماتنا في أرض مصر» (خر ١٦: ٣)، بل إيليه نفسه، إذ فرّ من وجه إيزابيل لينجو بنفسه، تمنّى الموت، كما يقول الكتاب وهو جالس تحت شجرة الشيح العرعر «... كفاني الآن يا ربّ، فخذ حياتي» (١مل ١٩: ٤). يونان أيضًا برّر تضجّره، بل غضبه من نحو الله نفسه: «فالآن أيّها الربّ خذ حياتي منّي، فخير لي أن أموت من أن أحيا» (يون ٤: ٣). وعندما سأله الله إن كان محقًّا في غضبه أجابه بأنّه محقّ، حتّى الموت. ما هو أسوأ من الموت سوى الموت في هذه الحياة، حتّى إنّ الأبرار يتغيّرون للموت! لكن إن شابهت الرسول بولس، بأنّي أمات كلّ يوم، بأنّ شيئًا ما أثقل من الموت يثقل عليّ؛ إن شابهت داود، نقتل النهار بطوله، لا النهار فقط بل في كلّ ساعة، بأنّ شيئًا ما أثقل من الموت يثقل عليّ؛ إن كان صحيحًا فقد شكّلت في الخطيئة، وبالمعصية ولدتني أمي (موتي الأوّل)؛ إن كان صحيحًا أنّي لم أولد ابنًا للخطيئة

بل للغضب، غضب الله على الإثم، وهو موت أفدح.

قام المسيح من دون أن يرى فسادًا. وما هو خاصّ به فقط وهو أن جسده لن يرى فسادًا، في مجيئه الثاني للدينونة سيطال ذلك الأحياء أيضًا؛ ولن ترى أجسادهم الفساد، فكما يقول الرسول، ويقوله كسرّ، سأطلعكم على سرّ، لن نرقد كلّنا أي، لن نبقى أمواتًا في القبر، بل نتغيّر في برهة، ننحلّ، وفي الوقت ذاته إعادة انحلال، وإعادة دمج للجسد والنفس، وهذا سيكون موتًا في الحقيقة وقيامةً حقًّا، لكن لن يكون رقاد في الفساد.

نادرة هي الأمثلة في الكتاب المقدّس عن موت الأبرار الفجائيّ، فالموت في ساحة القتال لا يدعى موتًا فجائيًّا؛ فالله يحكم لا بالأمثلة بل بالقواعد، ولذلك علينا ألا نكوّن استنتاجات خاطئة عن الموت الفجائي، مع أنّها ترادفت مصادفةً مع بعض تعابير الخجل والشكّ برحمة الله. صحيح أنّ الشجرة تستلقي إذ تهوي، ولكن ليست ضربة الفأس الأخيرة هي التي قتلت الشجرة، وكذلك ليست الكلمة الأخيرة هي التي تؤهّل النفس. بيد أنّنا ما نزال نصلّي لحياة سلاميّة مقابل الموت العنيف، ولوقت توبة مقابل الموت الفجائيّ، ولثقة رصينة ومتواضعة مقابل موت مضطرب، لكن علينا ألاّ نكوّن استنتاجات خاطئة عن أناس بغتوا بموت كهذا، للإله السيّد تنتمي مسائل الموت.

استقبل الله شمشون الذي رحل من هذا العالم بهذه الطريقة، إذ تعرّض لتأويلات كثيرة. إلاّ أنّ الروح القدس حرّك القدّيس بولس ليشيد بشمشون في كتابه العظيم (عب ١١)، ومعه كلّ الكنيسة. يومنا الحاسم ليس يوم موتنا، إنّما مجرى حياتنا كلّه. أتوجّه بالشكر إلى من يصلّي لراحة نفسي حين تأزف الساعة، ولكنّي أشكر أكثر من يعظني

أو يعلّمني أو يرشدني كيف أحيا. هناك ضمانتي، فم الربّ القائل، افعل هذا فتحيا. ومع أنّي أفعله إلاّ أنّي سأموت جسديًّا، سأموت طبيعيًّا. لكنّ الله لا يذكر ولا يبدو أنّه يعتبر ذاك الموت الجسديّ، الموت الطبيعيّ. لا يقول الله، عِش جيّدًا وستموت جيّدًا، أي موتًا سهلاً هادئًا؛ لكن اسلك جيّدًا وستحيا إلى الأبد[٥٩].

علينا أن ننظر إلى معاناتنا بمنظار إيماننا بقيامة يسوع. إلى تلك الـ«مرحبا» من بعد «إلى الوداع». نودّع عزيزًا في المطار، يختفي، أو تختفي، خلف الأفق لكنّنا نعلم بأنّه قريبًا سنقول «مرحبًا» بفرح. يجب أن نقف راسخين في القيامة، موقنين بأنّ هناك شيئًا خلف الموت؛ ما هو أبعد من الألم والأذى ووجع القلب. هنا تكمن قوّتنا ورجاؤنا. قوّة القيامة في فعلها بأن «ولا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا مصير الراقدين لئلاّ تحزنوا كسائر الذين لا رجاء لهم. فإن كنّا نؤمن بأنّ يسوع مات ثمّ قام، فكذلك نؤمن بأنّ الذين رقدوا في يسوع، سينقلهم الله إليه مع يسوع» (١تس ٤: ١٣-١٤).

إن كانت كلمات الوداع تلازمنا فكذلك ستلازمنا كلمات اللقاء. ونعرف، لإيماننا بقيامة ربّنا، بأنّ توديعاتنا ولقاءاتنا ليست نهائيّة لأنّنا نؤمن باللقاء الأبديّ. وقد عبّر الرسول بولس جيّدًا عن هذه الفكرة بقوله: «وأرى أنّ آلامنا في هذه الدنيا لا توازي المجد الذي سيظهر فينا» (رو ٨: ١٨).

سُئل مرّةً أحد الشهداء، «لم لست خائفًا من الموت؟» فأجاب «لأنّي متّ مسبقًا». ما عناه هو «لقد ودّعت الخطيئة وأمور هذا العالم، وأنا

[59] The dying life and the living death of the body. Delivered in a sermon at Whitehall, before the King's majesty, in the beginning of Lent 1630. By John Donne (1572-1631). Late Learned and Reverend Divine, John Donne, Dr. in Divinity and Dean of St. Paul's, London. From The New Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge; Christian Classics Ethereal Library.

جاهز لسماع المرحبا الأبديّة إذ يقولها يسوع «نعمّا أيّها العبد الصالح... ادخل فرح ربِّك. كنت أمينًا في القليل فسأقيمك على الكثير... رِث الملكوت المعدّ لك من قبل إنشاء العالم».«... وقال لا تخف، أنا الأوّل والآخر، أنا الحيّ كنت ميتًا، وها أنا حيّ إلى أبد الدهور. بيدي مفاتيح الموت ومثوى الأموات» (رؤ ١:١٧-١٨).

اعتقاد خاطئ آخر يظهر عند الحزانى بقولهم «خسرت كلّ شيء». يا لضلالهم! أنت لم تخسر أحبّاءك. فقط انفصلتم مؤقّتًا وبالبركة ستجتمعون ثانية. ستكونون معًا، هذه المرّة إلى الأبد. لم نخسر أحبّاءنا. «لكن كما يقول الكتاب الذي ما رأته عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر أعدّه الله للذين يحبّونه» (١كو ٢: ٩). أتوحي هذه الكلمات «بالخسارة»؟

اعتقاد خاطئ أخير كان يردّده زوج ناشج على موت زوجته، كان يقول «يا لحماقتي، فقد كنت أظنّ أنّها ستكون موجودةً دائمًا». لا أحد منّا سيكون موجودًا دائمًا. «ونحن نعرف أنّه إذا تهدّمت خيمتنا الأرضيّة التي نحن فيها، فلنا في السماء بيتٌ أبديّ من بناء الله غير مصنوع بالأيدي» (٢كو ٥: ١).

يعلن المسيح الناهض، «ستحيون، لأنّي أحيا». الحياة هنا على الأرض بديعة؛ إنّه عالم رائع، إنّه أفضل عالم رأيناه. بإمكان الله وحده أن يبدعه. لكنّ الحياة الحاضرة لا تقابل بما أعدّه الله للذين يحبّهم. عند النهاية لا يذهب المسيحيّ إلى ظلمة القبر بل إلى الربّ يسوع، نور العالم. «وإذا كان رجاؤنا في المسيح لا يتعدّى هذه الحياة، فنحن أشقى الناس جميعًا» (١كو ١٥: ١٩).

الموت البيولوجيّ للمسيحيّ، ليس هو النهاية، إنّه حدث مؤقّت.

بهاء هذا العالم يبان بالدموع، والأفضل هو ما ابتيع بألم عظيم ومصاعب جمّة، وبأنّه «لا بدّ من أن نجتاز كثيرًا من المصاعب لندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢). إلاّ أنّه متى اختبر الألم البشريّ ألم المسيح، وألَّم بجوهره المقدّس وعمقه، أنشأ الفردوس الحقيقيّ وأهّل الإنسان للملكوت السماويّ والأبديّة.

ألا فليقدنا الألم جميعًا إلى نور الملكوت المقدّس الذي لا يغرب، إلى الأبديّة، إلى مسكن المعيِّدين «حيث لا وجع ولا حزن ولا أنين، بل فرح وحياة أبديّة».

«تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح لأنّه شملنا بفائق رحمته، فولدنا بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات ولادةً ثانيةً لرجاء حيّ» (١بط ١: ٣).

إرشادات[60]

† الاستماع

البوح بالحزن يبدِّده. يجب أن يعاش ثانية ويشاطر بالكلام وبالعواطف. إن لم يفتح الجرح ليتعرّض للهواء والشمس فلن يشفى. نتعزّى إن وجدنا شخصًا نكلّمه وليس عليه أن يقدّم أيّة نصيحة أو أن يكون قد اختبر آلامًا مماثلة. المحزون هو بحاجة إلى أنّ يتكلّم وسيخيب أمله إن تجنّب المستمع مناقشة أسباب حزنه، أو حزنها بالطبع. كثيرون يتردّدون في زيارة محزون لأنّهم لا يعرفون ما سيقولون. لا يريدني المحزون أن أقول أيّ شيء. فقط أن يمسك بيدي وأن يبوح بحزنه. إسأل ودعه يتكلّم. امرأة مفجوعة تروي عن المؤاساة التي نالتها من صديقة، تقول: «أفكّر في المرأة التي واستني لحظة جاءتني مخابرة يعلموني فيها عن وفاة أخي الأصغر. تلك المرأة حضنتني وأنا أبكي. يا للراحة والتعزية اللتين شعرت بهما لحظتها. شعرت بأنّي لست وحدي في حزني، أعلم أنّها تهتم لمصابي وأنّها كانت بجانبي حزينةً معي».

† الحزن يقود إلى النموّ

وصف أحدهم مرحلة الحزن «برحلة» حيث يترك واحدنا البيت إلى أرض جديدة ويعود «بنفس متّسعة». كلّنا نقاسي في هذه الحياة. ليس المهمّ ما يحدث لنا إنّما كيف نتجاوب معه. إن قابلنا الحزن بالإيمان

[60] Surviving the Loss of a loved one. Second printing. Anthony Coniaris. Light and Life Publishing Company. 1992.

فسننمو روحيًّا. علينا احتمال ألم الصليب وحزنه قبل أن نختبر فرح القيامة. لن نكون نفسنا بعد اختبارنا الألم. فالألم له تأثير مهذِّب ومخصب. حقًّا، بائسون هم الذين لم يختبروا المعاناة وليست فيهم سمات الألم.

† قُل وداعًا

بسبب إيماننا بقيامة ربِّنا، فنحن نعلم أنّ الوداع ليس إلى الأبد لأنّنا نحيا بالإيمان في اللقاء «المرحبا» الأبديّة. مرّةً سُئِل شهيد مسيحيّ «لِمَ لا ترهب الموت؟» فأجاب «لأنّني ميت حاليًا». ما عناه هو أنّه قال «وداعًا» للخطيئة ولما في هذا العالم، وهو على استعداد الآن لسماع «المرحبا» الأبديّة من يسوع، إذ يقول له: «أحسنت أيّها العبد الصالح... أدخل إلى فرح ربّك...».

† الحزن بحاجة إلى البكاء

يجب أن نعبِّر عن الحزن لا بالكلام فقط إنّما بالبكاء والدموع أيضًا. إيماننا الراسخ ووعد الحياة الأبديّة يجب ألاّ يمنعاننا عن البكاء، وكمسيحيّين شجعان لا يعني ألاّ نبكي. طفلة قالت لأمّها «لعبة صديقتي انكسرت فتأخّرت على مساعدتها». وماذا فعلت، هل ساعدتها على إصلاحها سألت أمّها. «لا، بل ساعدتها على البكاء»، ردّت الابنة. من أهمّ وسائل مساعدة الحزانى هو أن نساعدهم على البكاء.

† إطار الشفاء

إطار الشفاء بالإيمان يشتمل على الصلوات اليوميّة. كتب

أحدهم: «غالبًا ما أهملت واجبات صلواتي اليوميّة. أمّا بعد وفاة زوجتي فلم أفوّت الصلاة يومًا واحدًا. وكأنّ موعدي مع الله صار موعدًا معها». يشتمل إطار الشفاء من الألم على: الإيمان والعائلة والأصحاب من جهة ومن جهة أخرى يشتمل على كلام الله، الكتاب المقدّس ومواعيده المفرحة. مثال على مساعدة الأصدقاء، يكتب أحدهم: دعوني أخبركم ما قاله لي الطبيب الذي أشرف على مرضِ زوجتي، إذ وقفت تائهًا ضائعًا بالقرب من سريرها ساعة وفاتها، عالمًا أنّ سبعة وثلاثين عامًا من الزواج قد انتهت، وشاعرًا في الوقت عينه بأنّ كلّ معنى للحياة قد انتفى. أمسك بذراعي لبرهة وقال بصوت من يؤكّد: «ستراها ثانيةً». هذا كلّ ما قاله، وكان كلّ ما أردت سماعه.

† تعلّم الشكران

جزء أساس في عمليّة الشفاء هو أن نتعلّم أن نقول «شكرًا» لكلّ بركات الله التي أسبغها علينا، وكلّ الذكريات السعيدة. زوجي، زوجتي، أولادي، أحفادي، أصدقائي العديدون هم هبة من الله، ويهتمّون من أجلي وقد أحتاطوا بي وتكاتفوا معي، وواجبي أن أقول لهم: شكرًا. أرملةٌ شابّةٌ مع طفلين، فقدت زوجها بعد صراع مع سرطان الدم، قالت إنّ أوّل نور بدا لها في ظلمة حزنها هو عندما تعلّمت أن تقول «شكرًا». شكرًا لك يا ربّ على كلّ ما كان وعلى ما سيأتي. فكلّ حياتنا هي في يديه. وقد أعدّ لكلّ الذين يحبّونه مستقبلاً جميلاً لا يمكن تصوّره ولا ينعت سوى بالفردوس.

† علاقة جديدة!

عند فقدان أحد الزوجين يتردّد البعض منهم في إقامة علاقة

جديدة، لأنّهم يشعرون بأنّ ذلك من شأنه أن يسيء إلى ذكرى من رحل. ويتردّد البعض الآخر لشعورهم بأنّ لا أحد بإمكانه الحلول محلّ الراحل. هذا صحيح إلى درجة معيّنة، إلاّ أنّ على من بقي على قيد الحياة أن يدرك أنّه وإن كان الراحل لا يعوّض، فمن المقبول أن يملأ الفراغ بعلاقة جديدة. هنا لا بدّ من التنويه بعدم التسرّع وألاّ يقدم على هذه الخطوة قبل مرور عام. البعض القليل لا يتردّد في إقامة علاقة ثانية متسرّعة. «إن تمكّنتُ من الزواج ثانيةً فكلّ شيء سيستوي» قال أحد الأرامل. هذا عمل غير ملائم لسببين، على الأقل: أوّلاً، قد تؤخّر الانحلال الكافي للحزن، فهو طريق مختصرة لمرحلة الحزن ولا تحلّ المشكلة بهذه الطريقة. يجب أن يمرّ وقت كاف. ثانيًا، قرار الزواج الثاني المتسرّع قد يقود إلى الطلاق، وهذا بحدّ ذاته خسارة أخرى. من ناحية أخرى وفي حال الزواج الثاني فيجب أن ينظر إلى الشخص المتزوّج وأن يقبل لشخصه وفرادته، لا على أنّه امتداد لمن رحل وذلك حتّى ينجح هذا الزواج.

† تبديل الأمكنة

اقتراح مفيد لمن فقد زوجه، يقتضي بأن ينام على السرير مكان الراحل ليتجنّب ألم النظر إلى المكان الذي كان الزوج الراحل يشغله. إحدى الأرامل قالت إنّها كانت تضع كتاب زوجها المقدّس أو أيقونة على الجانب حيث كان زوجها ينام.

† اعتقادات خاطئة

يكمن أحد الاعتقادات الخاطئة عن الحزن في أنّ «الوقت كفيل

بذلك». الحقيقة أنّ الوقت وحده لا يشفي الحزن، ما لم ترافقه العوامل التي ذكرت أعلاه. يجب ملء الوقت بالإيمان، بالصلوات، بالعائلة، بالأصدقاء والتعبير الصادق عن مشاعرنا. اعتقاد خاطئ آخر ما ردّده زوج ناشج خلف نعش زوجته، «كنت أحمق، فقد اعتقدت أنّها ستكون موجودةً دائمًا». لا أحد منّا سيدوم هنا، فنحن سائحون مارّون بطريقنا إلى الفردوس. هذا يجعلنا نقدّر ونثمّن اللحظات الثمينة التي نقضيها على الأرض مع من نحبّ. ويجب أن يقودنا ذلك إلى تمضية تلك اللحظات بخصوصيّة وجودة.

† تجنّب الوسطاء

البعض في حزنه يجد نفسه مضطرًّا إلى التواصل، ظاهريًّا مع راحليه بواسطة جلسات استحضار الأرواح. هؤلاء الوسطاء إن لم يكونوا مشعوذين فهم بالتأكيد متعاملون مع الشيطان. اجتنبوهم. إن أردت أن تقول شيئًا للراحل، قله ليسوع في الصلاة الذي سيوصل الرسالة لمحبوبك.

† أعِد الهديّة بمحبّة

صلاة التنازل قد تكون الأجدى عند فقد محبوب. نميل بطبعنا إلى تملُّك أحبّائنا. نحسّ بأنّهم ينتمون إلينا فقط، وننسى أنّنا كلّنا لله أبناء وأنّنا له، لا في العمر الحاضر القصير فقط إنّما للأبد. وحالنا مع مفارقينا لا يختلف، إذ لا نحرّره. نرفض موته. نرفض أن نترك المحبوب لله، نتمرّد. النتيجة أنّنا لا نتكيّف وتأخذنا التعاسة. التنازل المبنيّ على الإيمان سيقول في حالة كهذه، «ربّي، أنت أعطيتني ابني أو أبي أو قريبي.

أشكرك على الوقت الذي سمحت به له بيننا. وبما أنّه رقد الآن، فلن أتمسّك به بعد؛ سأعهد به إليك لتسكنه فردوسك. أعهد به إلى محبّتك وعطفك العظيمين». هذا النوع من التنازل يمنحك قوّة شفاء عظيمة وجوابًا أوحد للحزن. عندما تحين الساعة، أطلقه. الحياة ليست ملكنا، بل لله. دعه يسترجعها، فبالموت نولد للحياة الأبديّة.

† التنازل عن أحبّائنا لله

إذ كان ذلك الشابّ في العناية الفائقة في المستشفى، كان والده يصلّي. في لحظة ما تذمّر وفي اللحظة التالية صلّى: «ربّي اغفر لي، أعرف أنّك تحبّه أكثر منّي، في يديك أستودعه». سلام حلّ عندها. من بركات التنازل هذا أنّه يمنحنا شعورًا بالتعزية والسلام، إذ نعلم أنّنا وضعنا أنفسنا وأحبّاءنا بين يدي الله. الصلاة التي تتركنا بحالة من الخوف أو القلق أو التوتّر تعني أنّنا لم نسلّم بعد أنفسنا لرعاية الله، لأمانته، وأنّنا ما نزال نتّكل على أنفسنا. سلّم أحبّاءك لمحبّة الله، يحلّ فيك سلامه.

† على تذكّر الموت

أظلم فكرنا بعد السقوط لدرجة أنّنا نسيناه كلّيّة، ما لم نغصب أنفسنا على تذكّره. بنسيانه نتصرّف كخالدين على هذه الأرض، ونضحيّ بكلّ نشاطنا للعالم غير معنيّين أو عابئين بالتحوّل المخيف للأبديّة أو مصيرنا فيها. وبجسارة نهمل وصايا المسيح ومن ثمّ نرتكب أوحش الموبقات. ونهمل لا الصلوات المتواترة بل التي للمناسبات المعيّنة، ونبدأ باحتقار هذه الأعمال الأساسيّة والضروريّة، وكأنّها

أعمال لا طائل منها.

بنسياننا الموت الجسديّ، نموت روحيًّا.

من جهة أخرى، من يتذكّر الموت الجسديّ ينهض روحيًّا من الموت. كغريب يحيا على هذه الأرض وكنزيل أو مسجون يتوقّع دعوته إلى المحاكمة أو الدينونة أو الإعدام بدون كلل. وأبواب الأبديّة مشرّعة أمام ناظريه.

† بدون دموع سيبكي الجسد

تقول علوم الطبّ إنّه ما لم تبكِ المقل لإراحة الجسد فسيبكي بدوره. القروح على اختلافها، الخارجيّ والداخليّ منها، أنواع الصداع المختلفة ومئات الاعتلالات العصبيّة ما هي سوى محاولة الجسد للتنفيس بطرائق أخرى عمّا وضعه الله فينا. بالدموع نُنفِّس الاحتقان العاطفيّ ونزيل الكبت الذي سيمرضنا. البكاء ليس غريبًا في الكتاب المقدّس. سفر المراثي يبدو وكأنّه تنهيدة عظيمة.

† ابقَ على اتّصال

لا شيء يتحرّك من مكانه ما لم يوصل بالتيّار الكهربائيّ. لا يحرّك البخار شيئًا ما لم يوصل بأنابيب. مخرج الكهرباء مصدر طاقة عظيمة، بإمكانه إصدار الحرارة والضوء، وأن يشغل التلفاز والمذياع والبراد وما إلى هنالك إنّما يجب وصله أو توصيل الآلات المختلفة به. الإنسان كذلك يجب وصله بمصدر طاقة ولا طاقة أعظم من الله. فلا حياة بشريّة تستطيع أن تنتج بدون وصلها بالله. نحن نوصل بتلك الطاقة بواسطة الإيمان والصلاة. الصلاة ليست مجرّد حديث مع الله

بل تتعدّاه إلى سماع طرقِ يسوع على أبواب نفوسنا لفتحها أمامه وإدخاله. إنّه هذيذ باسم يسوع الكلّيّ القدرة بواسطة صلاة يسوع حتّى يبتلع القلب الربّ والربّ القلب. إنّه استدعاء متواصل لحلول الله وروحه فينا مع حكمته وقوّته. نتّصل معه بالأكل يوميًّا من خبز الحياة، كلام الله، كلّما قرأنا رسالته، أي الكتاب المقدّس. نوصل به بتناوله بندامة وتضرّع في سرّ الشكر «من يأكل جسدي ويشرب دمي يحيا فيّ وأنا فيه». بمحافظتنا على علاقتنا مع الله نستمدّ القوّة لغلبة حزننا.

† ارفعها أمام الربّ

الصلاة هي رفع أفكارنا لله، مشاركته فيها، أن نفتح له أكثر الأماكن سرّيّة في دواخلنا. نحاور الله مشاركينه أوجاع حياتنا اليوميّة وآلامنا وأفراحنا. من الأمثال الممتازة في الكتاب المقدّس عن صلاة متمحورة حول الربّ، سفر المزامير، حيث يحاور داود الله بانتظام. الملك حزقيه، في العهد القديم، استلم رسالة من عدوّه، ذلك النوع من الرسائل التي تؤرّق أيًّا منّا لأيّام. لكنّه بعد قراءتها «صعد إلى بيت الربّ وبسطها أمامه». مهما كانت قوّة القلق أو الاضطراب فبإمكاننا دومًا أن «نبسطها» أمام الربّ في الصلاة.

إحمل حزنك للربّ في كلّ حين، ابسطه أمامه. وهو يتعهّدك.

† دموع المجدليّة

أولى كلمات الربّ يسوع من بعد القيامة ارتبطت بالبكاء. «يا امرأة، لِمَ تبكين؟» كانت مريم المجدليّة مكسورة الفؤاد، محطّمة والحزن

يغلب عليها. لم يكن يسوع ميتًا فحسب إنّما فقدت جثّته، لهذا بكت. وكلمة واحدة قال يسوع: «مريم». عندما أنتحب حزنًا، تخبرني هذه القصّة أنّ عليّ أن أستمع إلى يسوع مناديًا باسمي. إن ترقّبت وانصتُّ فسأسمعه، لا بصوت مسموع إنّما في هدوء النفس، المسيح الناهض سيهرع لتعزيتي. وقت الحزن عند المسيحيّ هو زمن مرّ حلو. مرّ بسبب ألم الخسارة وعذاب الفراق. لكنّه حلو أيضًا بسبب خبرة القرب من المسيح وحقيقة سلطانه. أحدهم قال: لن ترى النفس قوس قزح ما لم تبكِ العيون.

† لو

تخبرنا الأناجيل عن التلاميذ الذين أُمسكوا في العاصفة ذات ليلة في بحر الجليل. كانت العاصفة الهوجاء تتقاذف مركبهم. لكن بالنسبة إلى التلاميذ أسوأ ما كان هو عدم وجود يسوع بينهم. ولمّا قالوا: «لو كان يسوع معنا».

لكنّه كان هناك! كان يصلّي على هضاب الجليل وكان يعلم بحالهم، وبطلبهم إيّاه. «فأتاهم في الهزيع الرابع من الليل، ماشيًا على البحر». لا تقل عندما تكون غارقًا في الحزن والألم والكآبة «لو كان يسوع هنا». إرفع رأسك وتطلّع! فأنت في حضرته! هو هنا، يمشي لا على بحر الجليل بل على أمواج نفسك المضطربة ليهدّئ العاصفة في داخلك ويحلّ السلام. «من هو هذا الذي يأمر الريح والبحر فتطيعه؟» ليس غير عمّانوئيل، ابن الله الحيّ؛ الله في داخلنا، الله معنا.

† الملائكة تساعدنا

الموت هو أكبر أزمة نصادفها. هذا هو وقت حاجتنا القصوى

إلى العون، وستكون الملائكة حاضرة لنجدتنا! يقول الذهبيّ الفم «إن تناولنا الأسرار المقدّسة قبل لفظنا الأنفاس الأخيرة بضمير طاهر فسترافقنا وتحرسنا جوقات الملائكة من أجل ما نلنا» أي جسد ربِّنا ودمه المحيين. لهذا السبب بعينه نؤمن بأنّ الموت يمكن أن يكون جميلاً. البعض رقدوا وعلى وجوههم تعابير الفرح (والمؤلّف شاهد على ذلك). فلا عجب إن قال الكتاب المقدّس «عزيز في عيني الربّ موت أبراره» (مز ١١٦: ١٥). ولا عجب أيضًا إن قال داود: «حتّى لو مشيت في وادي ظلّ الموت، لا أخشى شرًّا» (مز ٢٣: ٤).

† لمَ قد يتجنّبنا البعض

لا تُفاجأ إن ابتدأ بعض الخلان القدامى ينفرون من صديق فقد عزيزًا. وجودك معهم يذكّرهم بالموت. سيكونون غير مرتاحين بوجودك وسيتفادونك. سيؤلمك تصرّفهم ولكن حاول أن تفهم. أنشد المقرّبين منك المستعدّين للاستماع، أخبرهم عن شعورك وحاجاتك.

† تقويم كنيستنا

يزوّدنا تقويم كنيستنا بمناسبات عديدة حين تطلب منّا أن نواجه واقعيّة الموت. الجمعة العظيمة واحدة من هذه المناسبات، الفصح كذلك، الأحد أيضًا. كلّ أحد «فصح مصغَّر» نحتفل فيه بغلبة المسيح على الموت. بالإضافة إلى ذلك رتّبت الكنيسة سبوتًا معيّنة للتذكارات سمّيت «سبت الأموات» ما يتيح لنا فرصًا أخرى لمواجهة الموت. تقام في هذه السبوت الخدمة الإلهيّة مع صلوات خاصّة لأحبّائنا الراقدين. كلّ سبت نصلّي فيه أيضًا للرقدين بما أنّ المسيح رقد في السبت في القبر

حيث «استراح من كلّ أعماله وحطّم الموت بالموت». فيصبح السبت في العهد الجديد اليوم المناسب لتذكار الراقدين والصلاة من أجل راحة نفوسهم.

† المشاركة في الذكريات

قصّة تلميذي عمواس بعد موت الربّ تشرح الطريقة المثلى للتعامل مع الحزن. كان التلميذان ذاهبين إلى عمواس بعد الصلب بوقت قصير حيث قابلا غريبًا على الطريق. أصرّ عليهما أن يفصحا عمّا يحزنهما، فابتدآ بالكلام على يسوع. لم يَطل الأمر حتّى كشف لهما هذا الغريب عن هويّته وإذ به معلّمهما وصديقهما، قائم من بين الأموات. سؤال بسيط جعلهما يسترجعان ذكرياتهما عنه. تكلّم المفجوع على الراحل يخفّف حزنه ويساعد على الشفاء. إحدى الطرائق الجيّدة لمساعدة مفجوع هي أن نساله أن يشاركنا الذكريات الجميلة عن فقيده.

الصلوات في الكنيسة

لا بد من الإشارة إلى عمل جنانيز الثالث والتاسع والأربعين، مع «القمح المسلوق»، أمّا صلوات الثلاثة والستة أشهر ومن ثمّ السنويّة فصلاة التريساييون فقط، عند المقبرة إن كانت قريبة، وإلا ففي الكنيسة بعد خدمة القدّاس الإلهيّ مباشرةً. ولا ننسى الاشتراك المتواتر في الذبيحة الإلهيّة (كما ذكرت سابقًا فهنا نجتمع مع أحبّائنا الراقدين حول جسد المسيح، في اليوم الثامن). عادة وضع صورة للراقد لا تفيد بشيء سوى أنّها تجلب المزيد من الألم والحسرة بالنسبة إلى الأهل، ولا تمت إلى التقاليد المسيحيّة بصلة.

الصلوات في البيت[٦١]

من المهمّ جدًّا أن نبدأ الصلاة من أجل الراقد من ساعة رقاده وحيثما كان، بعيدًا منّا أو قريبًا، في البيت أو في المستشفى. صلاة التريساييون هي تعزيتنا وراحته. من المهمّ جدًّا، بحسب تعليم الكنيسة أن نصلّي هذه الصلاة خلال أربعين يومًا تلي الوفاة. لا يهمّ إن وجد كاهن أم لا. ولكنّ وجوده ضروري قبل الوفاة إن أمكن، ليعرّف المريض ويناوله الأسرار المقدّسة ومن ثمّ للصلاة لراحة نفسه قبل الدفن وبعده.

إذًا كلّ ما يلزمنا هو الآتي: نضع صورة الراقد(ة) وبجانبها (قنديل الزيت) أو شمعة مضاءة (مدّة أربعين يومًا) مع أيقونات للسيّد

[٦١] صلاة رتبة الدّفن من «كتاب مختصر الأفخولوجي».

والسيّدة وشفيع المتوفّى (شفيعتها) إن وجدت، وإلاّ فنكتفي بالأيقونة أو الصليب الموجود في المنزل، على طاولة في أحد أركان المنزل، حيث سنصلّي لمدة أربعين يومًا بعد الرقاد.

وهذا نصّ هذه الصلاة (بترجمة جديدة من إعداد الأب ميشال سابا) وهنا أشير إلى أنّه لا داع لترتيلها إن لم نكن نعرف الترتيل، القراءة تفي. يمكننا أن نتلوها صباحًا ومساءً، أو مرّة واحدةً في اليوم، هذا أمر شخصيّ.

ملاحظة: صلاة المسبحة مهمة جدًا أيضًا حيثما أمكن: ربي يسوع المسيح إرحم عبدك فلان (أمتك، عبيدك) المنتقل أو الراقد.

نبدأ هكذا:

تبارك الله إلهنا كلّ حين الآن وكلّ آنٍ وإلى دهر الداهرين، آمين.

قدّوس الله، قدّوس القوي، قدّوس الذي لا يموت ارحمنا (ثلاثًا).

(في المُدَّةِ الوَاقِعَةِ مَا بَيْنَ القِيَامَةِ المَجِيدَةِ والصُّعُودِ الإِلهِيّ، عِوَضَ «تبارك الله، وقُدُّوسٌ الله...»، يُقَالُ: «المَسِيحُ قَامَ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، وَوَطِئَ المَوْتَ بِالمَوْتِ، وَوَهَبَ الحَيَاةَ لِلَّذِينَ في القُبُور»).

المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

أيّها الثالوث القدوس ارحمنا، يا ربّ اغفر خطايانا،

يا سيِّد تجاوز سيّئاتنا، يا قدّوس افتقدنا واشف أمراضنا،

من أجل اسمك، يا ربّ ارحم، يا ربّ ارحم، يا ربّ ارحم.

المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكلّ آنٍ وإلى دهر الداهرين، آمين.

أبانا الذي في السموات، ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك،
لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض،
خبزنا الجوهريّ أعطنا اليوم، واترك لنا ما علينا،
كما نترك نحن لمن لنا عليه، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجّنا من الشرير،
لأنّ لك الملك والقدرة والمجد، أيّها الآب والابن والروح القدس، الآن
وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

✠ أيّها المخلّص، أرِح نفس عبدك (أو أمتك) مع أرواح الصدّيقين المكمّلين، واحفَظها للحياة المغبوطَة، التي من لَدنك، يا محَبّ البشر.

✠ أرح يا ربّ أيضًا نفس عبدك (أو أمتك) في راحتك، حيث جميع قدّيسيك يستريحون، لأنّك وحدك الحيّ الذِي لا يموت.

المجد للآب، والابن، والرّوح القدس.

✠ أنت إلهنا، الذي انحدر إلى الجحِيم، وأزال أوجاع المعتقلين. فأنت، يا مخلّص، أرح أيضًا نفس عبدكَ (أو أمتك) السابقِ رقاده.

الآن، وكلّ آن، وإلى دهر الداهرين. آمين.

✠ أيّتها العذراء الطاهرة النقيّة وحدك، يا من ولدت الإله بحال لا توصف، تشفّعي في خلاص نفس عبدك (أو أمتك) السابقِ رقاده.

نُبَخِّر (أو يبخّر الشمّاس إذا وجد وهو يقول الطلبة التالية، أو الكاهن).

ارحمنا يا الله بعظيم رحمتك، نطلب إليك فاستجب وارحم.

يا ربّ ارحم (ثلاثًا).

وأيضًا نطلب من أجل راحة نفس عبد الله (فلان... أو أمة الله، أو عبيد الله)، السابق رقاده،

ولأجل غفران كلّ زلّة طوعيّة أو كرهيّة،

يا ربّ ارحم (ثلاثًا).
لكي يرتّب الربّ الإله نفسه حيث الصدّيقون يستريحون،
يا ربّ ارحم (ثلاثًا).
رحمات الله، وملكوت السموات، وغفران خطاياه، من المسيح الذي لا يموت، ملكنا وإلهنا نسأل.
استجب يا ربّ.
هذه الصلاة (حل الخطايا) مختصة بالكاهن إن وُجِد: إلى الربّ نطلب... يا ربّ ارحم.

(يا إله الأرواح وكلّ ذي جسد)، يا من وطئ الموت، وأبطل إبليس، ووهب الحياة لعالمه؛ أنت، يا ربّ، أرح نفس عبدك السابق رقاده (فلان) [أو أمتك فلانة]، في مكان نيّر، في مكان ندىّ، في مكان ارتياح، حيث (ينتفي الوجع، والحزن والأنين). وبما أنّك إله صالح ومحبّ للبشر، اغفر كلّ خطيئة مقترفة منه بقول، أو بفعل، أو بفكر؛ لأنّ ما من إنسان، يحيا ولا يخطأ؛ إلاّ أنت وحدك مستثنى من الخطيئة؛ (وعدلك عدل إلى الأبد، وناموسك حقّ).

إلى الربّ نطلب... يا ربّ ارحم.

لأنّك أنت القيامة، والحياة، والراحة لعبدك السابق رقاده (فلان) [أو لأمتك (فلانة)]، أيّها المسيح إلهنا، وإليك نرفع المجد، وإلى أبيك الذي لا بدء له، وروحك الكلّيّ قدسه الصالح ومنشئ الحياة، الآن، وكلّ آنٍ، وإلى دهر الداهرين. آمين.
أيّتها الفائق قدسها والدة الإله خلّصينا.

يا من هي أكرم من الشيروبيم، وأرفع مجدًا بلا قياس من السيرافيم، يا من ولدت الله-الكلمة، وبقيت بتولاً، حقًّا إنّك والدة

الإله، إيّاك نعظّم.
المجد لك، يا إلهنا، ورجاءنا، المجد لك.
المجد للآب والابن والروح القدس،
الآن وكلّ آنٍ وإلى دهر الداهرين، آمين.
يا ربّ ارحم (ثلاثًا)
(باسم الرب بارك يا أب، إن وجد كاهن)

الحل (الإطلاق): أيّها المسيح إلهنا الحقيقيّ، يا من له السلطان على كلّ من الأحياء والأموات، كملك لا يموت، وقائم من بين الأموات،

✠ بشفاعات «أمّك» القدّيسة الكلّيّة الطهارة،
✠ والقدّيسين المجيدين «الرسل» الجديرين بكلّ مديح،
✠ وآبائنا «الأبرار» حاملي الله،
✠ والقدّيسين المجيدين «الأجداد»: إبراهيم إسحق ويعقوب،
✠ والقدّيس الصدّيق صديقك «لعازر» الرباعيّ الأيّام،
✠ وجميع «القدّيسين»،

رتّب نفس عبدك السابق رقاده المنتقل عنّا في مظلّ الصدّيقين، (آمين).

وأرحها في أحضان إبراهيم، واحصها مع الأبرار، (آمين)
أمّا نحن فارحمنا بما أنّك صالح ومحبّ للبشر.
فليكن ذكره مؤبّدًا، فليكن ذكره مؤبّدًا، فليكن ذكره مؤبّدًا
بصلوات آبائنا القدّيسين، أيّها الربّ يسوع المسيح إلهنا، ارحمنا وخلّصنا... آمين.

هذا الدُعاء: «فليكُن ذِكرُه مؤبَّدًا». يتلو الكاهن هذه الصلاةَ مرةً

والمرتِّلون يرتِّلونها مرّتين. حسب القدّيس سمعان التسالونيكيّ، هذا هو «القبول الرسميّ» للمتوفّى. ويدلّ هذا التصريح السارّ على أنّ المتوفّى «قد وضِع بين القدّيسين»، وأُحصي بينهم ويستحقّ ميراثهم وإيمانهم تمامًا مثلما كان حينما عاش إيمانهم. هذا هو بدقّة ما نعتقده نحن أيضًا ونرتِّله في ذلك الوقت. وعبر كلمات «فليكن ذكره مؤبّدًا» نستودع الراقد يدي الله الحيّ إلى الأبد. إنّه التماس من جهتنا إلى الربّ الذي تقبّله الآن حتّى يدوم ذكره كسائر القدّيسين، الذين نذكرهم كلّ يوم وسنذكرهم إلى الأبد.

من المفيد جدًّا قبل الدفن وبعده وخلال وجود أهل الراحل لتقبّل التعزية، أن تقرأ المزامير التالية بصوت مرتفع في القاعة، والأفضل الإقلاع عن الأحاديث الجانبيّة التي لا طائل منها والاهتمام بالتعزية.

(١) مزامير: ١، ٤، ٥، ٦، ٩، ١١، ١٣، ١٥، ١٦، ٢٣، ٣١، ٥١، ٥٧، ٦٣، ٧٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٢١.

(٢) مزامير: ١، ٤، ٥، ٦، ٩، ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ٢٢، ٣٠، ٥٠، ٥٦، ٦٢، ٧٦، ٨٧، ٩٠، ٩١، ١٠١، ١٠٢، ١٢٠.

توضيح: لائحة المزامير أعلاه تختلف بأرقامها وفقًا للترجمة التي تكون بين يدينا وقد وضعت خطًّا تحت المزمور ٥٠-٥١ (ارحمني يا ألله بحسب عظيم رحمتك)، فإن كان رقمه ٥٠ في الترجمة نقرأ من لائحة مزامير (٢). أمّا إن كان رقمه ٥١ فنقرأ من لائحة مزامير رقم (١).

ممارسات خاطئة

النوبة والندّابون[٦٢]

كثير من العادات المتّبعة في الموت، يعود إلى الأزمنة الوثنيّة، ومنها ارتداء الأسود حدادًا، والندب والنوبة وما إلى هنالك. وهذه كلّها أمور تستعمل للدلالة على المبالغة بالحداد، لكنّها تتعارض مع الإيمان الأرثوذكسيّ وتناقض الكتاب المقدّس. أمام الموت يحزن المسيحيّ لأنّه يُحرم من حضور من يحبّ، لكنّه لا يندب. لا يجعل المسيحيّ الحدث وقتًا للندب والسواد، وللنوبة والندّابين، لأنّ هذا يظهر أنّه ضعيف في الإيمان وأنّه نسي المسيح ومحبّته. القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم يتوجّه إلى لابسي الأسود: «ماذا تفعلون، أنتم الذين تدنّسون يوم القيامة هذا؟ أنتم الذين تتمسّكون بأسود الحداد ألا تؤمنون بالمسيح؟ لماذا تحزنون هذا الراحل؟ لماذا تحوّلون الراحة إلى خوف ورعدة عند الموت؟ لماذا تدفعون الناس إلى توجيه التهم إلى الله؟ أنتم تقاتلون أنفسكم. لماذا تندبون كالوثنيّين الذين لا رجاء لهم بالقيامة؟» إذا كان هذا الأمر ينطبق على لبس الأسود، فكم بالحري ينطبق على ما هو أكثر من ذلك. أمام عودة ظاهرة وجود النوبة والندّابين في الجنّاز، نحن مطالبون أكثر من أيّ وقت مضى، الكهنة قبل العلمانيّين، بالعودة إلى الفكر الذي يتكلّم به هذا القدّيس والتمسّك به.

يوجّهنا فليكس، مؤرّخ القرن الأوّل، إلى كيفيّة إقامة الجنّاز في وصفه ما كان يجري في الأزمنة المسيحيّة الأولى: «لا يوجد ندب في الجنّاز. لماذا وجوده؟ نحن نزيّن الجنّاز بالهدوء العظيم، كما نزيّن حياتنا.

[٦٢] ملكي الأب أنطوان.Othodox Legacy site.

لا توضع أكاليل الزهور التي تذبل على جبين الميت، لأنّنا نرجو أكاليل دائمة الاخضرار أبديّة. بهدوء واحتشام، محفوظين في فيض إلهنا وتسامحه، نحن نفعم بهجةً بالرجاء بالفرح الآتي والثقة بعظمة الله الحاضرة. وهكذا نحن نرتفع بالبركة ونحيا بتأمّل ما سوف يأتي».

إذا فكّرنا بعقلانيّة، نرى ضميرنا ووجداننا المسيحيّين يطرحان علينا أسئلة لا بدّ من السعي للإجابة عنها بفكر الكنيسة: لماذا نكفّن أنفسنا بالسواد؟ أهو من أجل أنفسنا أم من أجل الراحل أو من أجل المجتمع؟ لماذا نستدعي النوبة؟ أهو لإكرام المتوفّى؟ أيّ إكرام يأتي من الطبول الجوفاء والصنوج الرنّانة؟ أي تبجيل هذا الذي يقدّمه الشعراء لميت لم يعرفوه يومًا، ويقولون فيه كلامًا مستعدّين لقوله كلّ يوم وفي كلّ ميت، شرط أن يدفع ذووه المال؟ لماذا لا يقدّم الشعراء هذا التبجيل للفقراء؟ أهو الخوف من الموت الذي يدفعنا إلى مثل هذه الأمور، أو حبّ الظهور والتباهي؟

الأجوبة موجودة في الإنجيل وعند آبائنا القدّيسين. عندما سكبت المرأة الطيب على رجلي المسيح، تساءل تلاميذه: أليس الأجدى أن يباع هذا الطيب ويوزّع ثمنه على الفقراء؟ وهنا يصحّ السؤال: المال الذي يدفع للعازفين والندّابين، وهو في العادة ليس يسيرًا، أليس الأجدى أن يعطى للفقراء والمحتاجين، وهم كثر؟ يؤدّبنا القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان في كلامه: «يرهب التافهون من الموت وكأنّه كلّه شرور. الحمقى يخشون الموت، إمّا لأنّهم يظنّون أنّه يعني الإبادة، أو لأنّهم مرعوبون بروايات عنه... مراتب الأبالسة، منحدرات الظلام العالية، وغيرها». الثياب السوداء غير ملائمة ومعيبة للجنّازات والذكرانيّات الأرثوذكسيّة، وكأنّنا ندخل غرفة زفاف مرتدين ثيابًا سوداء كئيبة. نحن

«نحتفل» بالجنّازات والذكرانيّات؟ لذا من الواجب أن نلبس ثياب الإكليل من البياض والذهب ونرمي جانبًا الندب ونحمل الرجاء، كما يعلّمنا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: « لا مكان للدموع حيث تكون المعجزات وحيث يحتفل بهذا السرّ. اسمعوا لي، أنا أرجوكم... يحتفل بسرّ عظيم عندما يرقد أحد ما. إذا كنا نجلس معًا وأرسل الإمبراطور في دعوتنا إلى قصره، أيكون من الصواب أن ننوح ونندب؟ ألا تعرفون أيّ سرّ يجري الآن، وكم هو رائع ويستحقّ الترنيم والمديح؟ إنّه سرّ عظيم من أسرار حكمة الله. النفس تتقدّم مسرعة إلى ربّها، وأنتم تندبون؟ إذ كما أنّ الشمس تشرق ساطعة بهيّة، كذلك النفس بعد أن تترك الجسد بضمير نقيّ، تلمع بالبهجة... تترك النفس الجسد برفقة الملائكة، فكّروا في كيف ينبغي أن تكون! في أيّ دهشة، وأيّ روعة، وأيّ ابتهاج! فلماذا تندبون؟ هذا هو سبب الصلوات والمزامير والتمجيد لله، حتّى لا تندبوا ولا تنوحوا بل بالأحرى لتشكروا الله الذي أخذ الراقد...».

إذًا فليسعَ الكلّ إلى الكفّ عن الممارسات الوثنيّة في الجنائز والذكرانيّات. إنّها مسؤوليّة الكهنة أوّلاً، ومعهم مجالس الرعايا، إذا استثنينا أهل الفقيد على افتراض أنّهم ينشغلون بفقدهم حبيبهم. ما من وظيفة لهذه الممارسات سوى أنّها تلهي عقول المؤمنين والمعزّين، وتحوّل اهتمامهم عن إنجيل المسيح. إنّها تناقض الأرثوذكسيّة بالكلّيّة وتخالف إنجيل المسيح. في جنازاتنا وذكرانيّاتنا فلنمزج حزننا بالابتهاج، وإذا عجزنا عن الابتهاج، فأقلّه فلنتعزّ بكلمات الذي وعدنا بأنّه «لا الحياة ولا الموت... تستطيع أن تفصلنا عن محبّة الله التي في يسوع المسيح ربّنا».

الوعظ من الباب الملوكيّ، ينبغي أن يتخطّى التقليديّات، مثل فلان أنجب وعلّم وبنى. ينبغي أن يكون الوعظ تعليمًا، وإلاّ تحوّل الواعظ إلى ندّاب إضافيّ. على الراعي أن يعلّم الشعب معنى الموت الأرثوذكسيّ الذي تعلّمنا إيّاه الكنيسة، ليس فقط عن الجنّة والنار، بل عن رحمة المسيح، ولا عن الندب والنوح بل عن الرجاء بعد الموت. على مجلس الرعيّة ألاّ يكتفي بعدّ بدلات الأكاليل، ولا أن يكون دوره محصورًا في تأمين مستلزمات الجنّاز وغيرها. أمّا أهل الفقيد فعليهم أن يضعوا جانبًا كلّ ما هو غير أرثوذكسيّ، وليفرحوا صارخين مع القدّيس غرغوريوس اللاهوتيّ: «أنا أؤمن بكلمات الحكماء، لأنّ كلّ نفس مرهفة ومحبّة لله، عندما ترحل من هنا، تتقدّم مبتهجة للقاء ربّها... وتدخل فرح السعادة المهيّأ لها».

هل تحوم الروح بعد فراقها الجسد حول بيت الراقد (أو في المكان الذي رقد فيه، كالمستشفى)؟

لا أحد من الآباء، بحسب علمي، تكلم على هذا الموضوع، لأنّه غير صحيح. من وجهة نظر ليتورجيّة، رتّبت الكنيسة صلوات لكلّ مناسبة ولكلّ ما يختصّ بحياتنا الروحيّة. لكن لا توجد أيّة صلوات لهذه الحالة، ما يدفعني للجزم بأنّها غير صحيحة. وعلى العكس من ذلك، فصلاة النوم تقول (في الصلاة المرفوعة لوالدة الإله): «وفي ساعة موتي أحيطي بنفسي الشقيّة واقصي عني وجه الشرّير المظلم». وفي رتبة الدفن نكرّر الدعاء للمخلِّص بأن «يُسكن عبده هذا المنتقل إليه» ولا نذكر في أيّ من الصلوات أنّ المنتقل سيتأخّر بالذهاب حيث المقصد الأخير. وأيضا نقول: «.. إقبلِ الآن هذا الراقد عن إيمان..»

وليس بعد أيّام قلائل أو أسبوع! وأيضًا في قراءة الرسالة: «مغبوط السبيل الذي تسير فيه اليوم فإنّه تهيّأ لك مكان الارتياح». وفي إحدى التراتيل نقول: «يا والدة الإله... لكي يريح الآن هذا المنتقل حيث تستريح نفوس الصدّيقين»[٦٣].

في الكتاب المقدّس يذكر السيّد مثل الغنيّ ولعازر الفقير المجروح المطروح عند بابه، ثمّ يقول: «ومات لعازر فنقلته الملائكة إلى حضن إبراهيم» هل نقلته بعد حين؟ لا أظنّ. ولا ننسى اللّص الذي صلب عن يمين الربّ إذ قال له: «الآن تكون معي في الفردوس».

سأضيف ما قاله القدّيس نيقوديموس الآثوسيّ الذي من الجبل المقدّس في هذا الصدد: «نفوس الصدّيقين والخطأة، عند فراقها الجسد، لا تبقى على هذه الأرض، إنّما تذهب مباشرةً إلى حيث أعدّ الله لها. يستشهد القدّيس نيقوديموس بالذهبيّ الفم في كلامه على مثل الغنيّ ولعازر لتأكيد قوله، وكذلك يقتبس من القدّيس يوحنّا السينائيّ الذي يعلّم: «عند افصال الروح عن الجسد تصعد نفوس المستحقّين وتنزل نفوس غير المستحقّين ولا نفس تبقى على الأرض». وبعد ذلك يختم القدّيس نيقوديموس: «نستنتج من أقوال القدّيسين أنّهم يدحضون القائلين بأنّ أرواح الراقدين من أبرار وخطأة تطوف على الأرض لمدّة أربعين يومًا حيث تزور أماكن سكناها، وهذه الأقوال إنّما ضرب من الأساطير والخرافات وغير محتملة ويجب عدم الأخذ بها».

هل الله يحيي ويميت؟

أبدًا! فان الله خلق الانسان خالدا و صنعه على صورة ذاته

[٦٣] صلاة رتبة الدّفن من «كتاب مختصر الأفخولوجي».

لكن بحسد ابليس دخل الموت الى العالم، فيذوقه الذين هم من حزبه (حك ٢: ٣٢-٥٢). الله يحيي ولا يميت. ليس هناك أيّ تلاق بين الله والموت، روحيًّا كان هذا الموت أو بيولوجيًّا، فالله ليس سبب الموت، بل ليس هو سبب أيّ شرّ. الشرّ والموت هما عدوّا الله وإبادتهما هي هدف تدبيره الخلاصيّ. وقد دشّن الله عمليّة إبادتهما على الصليب وسينهيهما في يوم الدينونة الأخير. الموت في الكتاب المقدّس وفي التعليم الكنسيّ هو الابتعاد عن الله مصدر الحياة وقد ظهر في العالم مع الخطيئة (روم ٥، ١٢). الموت ليس عقابًا رمى به الله الإنسان الخاطئ بل هو نتيجة طبيعيّة لابتعاد الإنسان عن الله مصدر الحياة. لا يمكن القبول بالموت سلاحًا بيد الله ينتقم به من أعدائه. هو سلاح بيد أعداء الله يرهبون الإنسان به لإبعاده عن قصد الله الخلاصيّ، وقد وجّهه أعداء الله، بغباء، إلى الله نفسه بشخص ابنه المتجسّد، فكان هو الضحيّة ولم يكن الجلاّد، كان الممات ولم يكن المميت: «يا أبت اغفر لهم، لأنّهم لا يدركون ما يفعلون» (لو ٢٣: ٣٤).

الموت نتيجة طبيعيّة لمحدوديّة الإنسان المخلوق من العدم وغير الكامل. وحده الكامل لا يعرف الموت والفناء. لماذا، إذًا، خلق الله الإنسان كائنًا محدودًا غير كامل؟ أوَ ليس هذا إقرارًا بأنّ الله في خلقه غرز الموت في محدوديّة خليقته ولا كماليّتها؟ أبدًا! خلق الله الإنسان كائنًا محدودًا ولكن على صورته. دعاه إلى مثاله، أي دعاه أن يتعاون، عبر صورة الله المتمثّلة في الإرادة الحرّة الواعية، مع خالقه لتخطّي هذه المحدوديّة. لم يشأ أن تكون لا محدوديّة الإنسان إنجازًا الهيًّا بحتًا، بل سعيًا حرًّا من الإنسان، يستثمر عبره هذا الأخير صورة الله التي زرعت

به. وما حدث السقوط إلا توغّل من الإنسان في محدوديّته وفنائيّته. والسقوط سوء استعمال لحرّيّة شاءها الله للإنسان ارتقاءً من المحدوديّة إلى كمال الله. أوَ نلوم الله على حرّيّة أسأنا استعمالها؟

«أخذه الله اليه»

عبارة تستخدم كثيرًا في خطابنا الكنسيّ ويقصد عبرها تعزية المحزونين بفقدان حبيب لهم. لكنّها لا تبدو إلا مرادفة لعبارة «أماته الله»، ولا ندري مقدار التعزية التي سيحظى بها أهل الراقد من جرّاء هذه العبارة. فإذا كانوا من غير المؤمنين، فعبارة كهذه ستزيد من عدم إيمانهم ورفضهم لإله صوّر لهم منافسًا لهم ومغتصبًا لما يعتبرونه ملكًا لهم. أمّا إذا كانوا من «المؤمنين» فيسلّمون بهذه الواقعة تسليم «مؤمن» بإرادة صوِّرت له إلهيّة، لا تقاوم ولا تناقش ولا تحاجج. أمِن تسليم كهذا تأتي تعزية؟ التسليم اللاواعي الذي يطلب دومًا من المؤمنين لا ينشئ تعزية حقيقيّة. بل حسرة من لا حول له ولا قوّة. وشتّان بين الحسرة الخانعة والتعزية.

لكنّ المشكلة في هذه العبارة لا تكمن في انعكاساتها على المحزونين فحسب بل في عدم صحّتها. أيضًا لماذا هذا الإصرار على تصوير الله كأنّه يخطف من أمامنا من نحبّ ليجعلهم معه؟

لِمَ هذه الصورة البدائيّة المنفعيّة التي نصوّر الله بها؟ يعلّمنا الكتابَ أنّ «ما من أحد يحيا لنفسه وما من أحد يموت لنفسه. فإذا حيينا فللربّ نحيا وإن متنا فللربّ نموت. سواء حيينا أم متنا فإنّنا للربّ. وقد مات المسيح وعاد إلى الحياة ليكون ربّ الأموات والأحياء» (روم ١٤: ٧-٩). البشريّة والكون بمجمله للربّ وهو لا ينتظر الموت

حتّى يضمّنا إلى «ملكيّته». الربّ، أصلاً، يفرح لقربانا من دون أن يحتاج إليها، بل نحن من نحتاج إلى قرباه. قربى الإنسان من الله تبدأ وتتحقّق في حياته الأرضيّة وليس في الموت. فمن كان بعيدًا عن الله قبل موته لن يغيّر الموت فيه شيئًا، ومن كان قريبًا من الله قبل موته سيحفظ قرباه بعد موته بانتظار القربى النهائيّة في يوم الدينونة الأخير يوم قيامة الأجساد[٦٤].

[٦٤] نشرة الكرمة عدد ٢٠ - أحد المخلع- ١٥ أيار ٢٠١١.

سلسلة «شؤون رعائيّة»

١- المواهب في الكنيسة	مجموعة من المؤلّفين
٢- آراء في شعب الله والرعاية والمشاركة	مجموعة من المؤلّفين
٣- في سبيل كنيسة حيّة	المطران سابا (إسبر)
٤- أبعد من القانون	جورج توفيق غندور
٥- الموت رؤية أرثوذكسيّة	الشماس إلياس بركات

في مدنيتنا الحاضرة كلّ شيء يجب أن ينظّم حتّى ننسى الموت. من هنا إنّنا نلجأ إلى الاستمتاع وإلى التملّك. من هنا إنّنا لا نستطيع أن نعرف أنّ الحياة هي في المشاركة، وفي المحبّة التي تجعلنا وحدها ندوم.

قدس المؤلّف يريد المؤمنين أن يقيموا في العقيدة السليمة، فلا يتجاوزون الإيمان «المسلّم مرّة من القدّيسين»، إذ هو وحده يخلّص، ولذلك اتّخذ الكتاب الطابع العقديّ الذي يحفظ المؤمنين من الضلال، والطابع الرعائيّ الذي يقيهم الانفعالات المؤذية.

نحن في حاجة إلى العلم بالمسيح، وما يعطينا فداؤه لنا، وإلى أن تعرض أوجاعنا عليه. هذا ما تجده في هذا الكتاب النفيس، ولا سيّما إذا استغنيت بأقوال الكتاب الإلهيّ فيه والآباء... هذا الكتاب مسيرة من مسيرات الخلاص.

من مقدّمة المطران جورج خضر

AN-NOUR COOP